وتزيين الشيطان بالوسوسة والخديعة»[١].

وقال أبو السعود: «﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان حقارة شأن الحظوظ الدنيوية بأصنافها، وتزهيد للناس فيها، وتوجيه رغباتهم إلى ما عنده تعالى، إثر بيان عدم نفعها للكفرة الذين كانوا يتعززون بها»[٢].

فلم يُذكر الفاعل تأدباً مع الله تعالى.

ـ وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

ـ وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٤﴾﴾ [محمد].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾ [الإسراء].

فأضاف النعمة إلى الله تعالى، ومسَّ الشر لغيره، وفيه تعليم الأدب مع المنعم جل وعلا.

قال أبو السعود: «﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ من فقر أو مرض أو نازلة من النوازل، وفي إسناد المساس إلى الشر بعد إسناد الإنعام إلى ضمير الجلالة إيذان بأن الخير مراد بالذات، والشر ليس كذلك»[٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف].

ـ مع قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: ٨٢].

ففي الآية الأولى أسند ما ظاهره شر لنفسه.

وفي الآية الثانية أسند الخير إلى الله تعالى على سبيل الأدب مع الله تعالى.

---

(١) التسهيل ١/ ١٨٩.
(٢) تفسير أبي السعود ٢/ ١٤.
(٣) تفسير أبي السعود ٥/ ١٩١.

قال الزركشي تحت عنوان التأدب في الخطاب بإضافة الخير إلى الله: «وتأمل جواب الخضر عليه السلام عما فعله حيث قال في إعابة السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ﴾، وقال في الغلام: ﴿فَأَرَدْنَآ﴾، وفي إقامة الجدار: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾»[١].

وقال ابن عطية: «وإنما انفرد أولاً في الإرادة؛ لأنها لفظة عيب فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلا إلى نفسه، وإنما قال الخضر في الثانية: فأردنا؛ لأنه أمَل قد كان رواه هو وأصحابه الصالحون، وتكلم فيه في معنى الخشية على الوالدين، وتمنى البديل لهما، وإنما أسند الإرادة في الثالثة إلى الله تعالى؛ لأنها في أمر مستأنف في الزمن طويل، غيب من الغيوب، فحسن إفادة هذا الموضع بذكر الله تعالى، وإن كان الخضر قد أراد أيضاً ذلك الذي أعلمه الله أنه يريده، فهذا توجيه فصاحة هذه العبارة بحسب فهمنا المقصر، والله أعلم»[٢].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا﴾ [الكهف: ٨٢] هاهنا أسند الإرادة إلى الله تعالى؛ لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله»[٣].

وقال القرطبي: «أضاف عيب السفينة إلى نفسه رعاية للأدب؛ لأنها لفظة عيب فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلا إلى نفسه»[٤].

ـ وقوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء].

فنسب المرض إلى نفسه، ولم يقل: أمرضني.

أما ما قبلها وبعدها[٥] فنسبه إلى رب العالمين؛ كالخلق، والهداية،

---

(١) البرهان ٤/ ٥٩.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٦٧، وينظر: البرهان ٤/ ٦٠.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٧.
(٤) تفسير القرطبي ١١/ ٣٩.
(٥) سياق الآيات قبلها وبعدها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء].

والإطعام، والسقي، والشفاء، والإماتة، والإحياء، وغفران الخطيئة[١].

قال ابن عطية: «تأدب إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ فأسند الفعل قبلُ وبعدُ إلى الله تعالى، وأسند المرض إلى نفسه، إذ هو معنى نقصٍ ومصيبة، وهذا المنزع يطرد في فصاحة القرآن كثيراً، ألا ترى إلى تقديم فعل البشر في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصَّف: ٥]، وتقديم فعل الله تعالى في قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾ [التوبة: ١١٨]»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ﴿١٠﴾﴾ [الجنّ].

ففي هذة الآية مثال واضح للأدب مع الله تعالى حيث أضافوا الخير إلى الرب سبحانه، وحذفوا فاعل الشر تأدباً مع الله[٣].

قال أبو السعود: «﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بحراسة السماء ﴿أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ﴿١٠﴾﴾؛ أي: خيراً، ونسبة الخير إلى الله تعالى دون الشر، من الآداب الشريفة القرآنية، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء]، ونظائره»[٤].

وقال السعدي: «قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ﴿١٠﴾﴾ [الجنّ]؛ أي: لا بد من هذا أو هذا؛ لأنهم رأوا الأمر تغير عليهم تغيراً أنكروه، فعرفوا بفطنتهم أن هذا الأمر يريده الله، ويحدثه في الأرض، وفي هذا بيان لأدبهم، إذ أضافوا الخير إلى الله تعالى، والشر حذفوا فاعله تأدباً مع الله»[٥].

ـ وقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾ [الفلق].

فنسب الشر هنا للمخلوق، ولم يقل: الشر الذي خلقه، فالنسبة إلى سبب الشر أدباً مع الخالق جل وعلا[٦].

---

(١) ينظر: الموافقات ٢/ ١٦٧.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٦٧.
(٣) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية ٢/ ٥١٧.
(٤) تفسير أبي السعود ٩/ ٤٤.
(٥) تفسير السعدي ٨٩٠.
(٦) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية ٢/ ٥١٧.

قال مكي: «وقوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾؛ أي: من شر كل ذي شر، أمر الله نبيه أن يتعوذ من شر كل ذي شر؛ لأن ما سواه ـ تعالى ذكره ـ مخلوق»(١).

وقال ابن القيم: «الشر الذي يصيب العبد لا يخلو من قسمين:

إما ذنوب وقعت منه يعاقب عليها، فيكون وقوع ذلك بفعله وقصده وسعيه، ويكون هذا الشر هو الذنوب وموجباتها، وهو أعظم الشرين وأدومهما، وأشدهما اتصالاً بصاحبه.

وإما شر واقع به من غيره، وذلك الغير إما مكلف أو غير مكلف، والمكلف إما نظيره، وهو الإنسان، أو ليس نظيره، وهو الجني، وغير المكلف، مثل: الهوام وذوات الحُمَة وغيرها»(٢).

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾؛ أي: من شر جميع المخلوقات»(٣).

إلى غير ذلك من الأمثلة في كتاب الله تعالى.

قال الزركشي: «وهذا النوع مطرد في فصاحة القرآن كثيراً»(٤)، والله تعالى أعلم.

وأختم بقول ابن تيمية: «وقد علم المسلمون أن الله لم يخلق شيئاً ما إلا لحكمة؛ فتلك الحكمة وجه حسنه وخيره، ولا يكون في المخلوقات شر محض لا خير فيه، ولا فائدة فيه بوجه من الوجوه؛ وبهذا يظهر معنى قوله: «**والشر ليس إليك**»، وكون الشر لم يُضَف إلى الله وحده؛ بل إما بطريق العموم(٥)، أو يضاف إلى السبب(٦)، أو يحذف فاعله(٧)»(٨).

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية ١٢/ ٨٥٠٨.
(٢) التفسير القيم ٥٤٥.
(٣) تفسير ابن كثير ٨/ ٥٣٥.
(٤) البرهان ٤/ ٦٠.
(٥) كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزُّمر: ٦٢].
(٦) كقوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق].
(٧) كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ۝١٠﴾ [الجنّ].
(٨) مجموع الفتاوى ١٤/ ٢١.

وهذا هو منهج القرآن لمن تأمله وتدبره.

ويتفرع من هذه العادة ما هو أخص وهو إضافة الثواب إلى الله تعالى.

فإن الثواب من الخير، **ومن الأمثلة على هذا ما يلي:**

ـ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة].

وفي هذه الآية بيان فضل الصدقة حيث جعل ثوابها عنده جل وعلا.

قال السعدي: «وقوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: كل أحد منهم بحسب حاله.

وتخصيص ذلك، بأنه عند ربهم، يدل على شرف هذه الحال، ووقوعها في الموقع الأكبر، كما في الحديث الصحيح: «**إن العبد ليتصدق بالتمرة من كسب طيب فيتقبلها الجبار بيده، فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل العظيم**»[(١)].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة].

فبين جل وعلا أن ثوابهم عنده، وفيه إشارة إلى شرف هذه الحال، واستحقاقها الثواب العظيم، وأن ثوابهم عند الله وحده دون سواه.

قال ابن كثير: «فقال: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: ثوابهم على الله، لا على أحد سواه»[(٢)].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران].

---

(١) تفسير السعدي ٩٥٨.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٦٩٣.

أي: أجاب الله دعاءهم، وبيَّن سبحانه أنه لا يضيع عمل عامل منهم من ذكر أو أنثى، سيلقون ثواب أعمالهم كاملاً موفراً ممن يملك الثواب، ويعطي على العمل القليل الثواب الكبير، وختم الآية بالتأكيد بأن الثواب من عند الله فقال: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران: ١٩٥][(١)].

قال السمرقندي: «﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ﴾ يعني: الجنات جزاء لأعمالهم من عند الله تعالى»[(٢)].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ﴾ أضافه إليه ونسبه إليه لِيدل على أنه عظيم؛ لأن العظيم الكريم لا يعطي إلا جَزيلاً كثيراً»[(٣)].

ـ ومثلها ما جاء بعدها في قول الله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [المائدة].

الآية في النصارى الذين قال الله عنهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة]، ثم بيَّن تعالى أنه أثابهم على إيمانهم بالثواب الجزيل، والنعيم المقيم.

قال القرطبي: «قوله تعالى: «﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ﴾ دليل على إخلاص إيمانهم وصدق مقالهم، فأجاب الله سؤالهم وحقق طمعهم، وهكذا من خلص إيمانه وصدق يقينه يكون ثوابه الجنة»[(٤)].

قال ابن كثير: «﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ أي: فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: ساكنين فيها أبداً، لا يحولون ولا يزولون، ﴿وَذَٰلِكَ

(١) ينظر: تفسير السعدي ١٦٢.
(٢) تفسير السمرقندي ١/ ٣٠٠.
(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ١٩١.
(٤) تفسير القرطبي ٦/ ٢٦٠.

جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾؛ أي: في اتباعهم الحق وانقيادهم له حيث كان، وأين كان، ومع من كان»[١].

وقال البقاعي: «ولما ذكر قولهم الدال على حسن اعتقادهم وجميل استعدادهم، ذكر جزاءهم عليه فقال: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: الذي له جميع صفات الكمال، ﴿بِمَا قَالُواْ﴾؛ أي: جعل ثوابهم على هذا القول المستند إلى خلوص النية الناشئ عن حسن الطوية»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور].

في هذه الآية بيان فضل الله تعالى بجزائهم الثواب الأحسنَ من عملهم، والزيادة من فضله.

قال ابن عطية: «فالآية تنبيه على عظم النعمة عليهم، وجعل رزقهم بغير حساب، حيث هو دائم لا يتناهى، فهو لا ينفد»[٣].

وقال القرطبي: «﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ فذكر الجزاء على الحسنات، ولم يذكر الجزاء على السيئات ـ وإن كان يجازي عليها ـ لأمرين:

أحدهما: أنه ترغيب، فاقتصر على ذكر الرغبة.

الثاني: أنه في صفة قوم لا تكون منهم الكبائر، فكانت صغائرهم مغفورة»[٤].

وقال أبو السعود: «قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ فإنه تذييل مقرر للزيادة، ووعد كريم؛ بأنه تعالى يعطيهم غير أجزية أعمالهم من الخيرات ما لا يفي به الحساب»[٥].

ـ وقوله تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ [النَّبأ].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١٦٩.
(٢) نظم الدرر ٢/ ٥٢٤.
(٣) المحرر الوجيز ١/ ٢٧١.
(٤) تفسير القرطبي ١٢/ ٢٨١.
(٥) تفسير أبي السعود ٦/ ١٨٠.

في هذه الآية جعل الله تعالى الجزاء منه، عطاءً كثيراً، فجزاهم بالعمل اليسير الخير الجسيم الذي لا انقطاع له.

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾؛ أي: هذا الذي ذكرناه جازاهم الله به وأعطاهموه، بفضله ومَنِّه وإحسانه ورحمته؛ ﴿عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾؛ أي: كافياً وافراً شاملاً كثيراً؛ تقول العرب: أعطاني فأحسبني؛ أي: كفاني، ومنه: حسبي الله؛ أي: الله كافيّ»[(١)]، والله تعالى أعلم.

المطلب الثاني

ذكر سبب العقاب

الحِكْمَة في جميع ألفاظ القرآن ومعانيه ظاهرة في آياته، **ومن ذلك**:

ذِكرُ سبب العقاب لمن استحقه، وعدمُ التزام ذكر سبب الثواب، تنبيهاً على أن الثواب من الله تعالى فضل، والعقاب منه عدل.

قال ابن القيم: «نصوص الثواب على الأعمال[(٢)] إنما تدل على أن الأعمال أسباب؛ لا أعواض وأثمان، والذي نفاه النبي ﷺ في الدخول بالعمل[(٣)]، هو نفي استحقاق العوض ببذل عوضه، فالمثبت باء السببية، والمنفي باء المعاوضة والمقابلة، وهذا فصل الخطاب في هذه المسألة»[(٤)].

---

(١) تفسير ابن كثير ٨/ ٣٠٩.

(٢) كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزُّخرف]، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف]، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران].

(٣) في قوله ﷺ: «**سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لن يُدخِل الجنةَ أحداً عملُه**، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة**». أخرجه البخاري ٧/ ١٥٧ (٥٦٧٣)، كتاب المرضى، باب نهي تمني المريض الموت، وأخرجه مسلم ٤/ ٢١٦٩ (٢٨١٦)، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) مفتاح دار السعادة ٢/ ٩٢.

ومن الأدلة على عادة القرآن في ذكر السبب المناسب لعقوبات الأمم الضالة:

التصريح بلفظ الحكمة، كما في قوله تعالى: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾ [القمر]، بعد ذكره الإنذارَ الزاجرَ من العقوبات في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾ [القمر].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾؛ أي: من الأخبار عن قصص الأمم المكذبين بالرسل، وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب، مما يتلى عليهم في هذا القرآن، ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾؛ أي: ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادي على التكذيب.

وقوله: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾؛ أي: في هدايته تعالى لمن هداه وإضلاله لمن أضله، ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾؛ يعني: أي شيء تغني النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة، وختم على قلبه؟ فمن الذي يهديه من بعد الله؟ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٤٩﴾ [الأنعام]، وكذا قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝١٠١﴾ [يونس]»[1].

وقال الرازي: «بينَّا مراراً أن العادل يذكر للعقاب سبباً، والمتفضل لا يذكر للإنعام والتفضل سبباً»[2].

وقال ابن القيم: «وتأمل القرآن من أوله إلى آخره كيف تجده كفيلاً بأن الله تعالى لا يعاقب إلا من يستحق العقاب، ولا ينتقم إلا ممن يستحق الانتقام؛ كقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦﴾ [القلم]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٢١﴾ [الجاثية]، وقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ۝٢٨﴾ [ص]، فأنكر سبحانه على من ظن ما لا يليق بحكمة الله وعزته وإلٰهيته، ونزه

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٤٧٥.
(٢) تفسير الرازي ٢٩/ ١٧٧.

نفسه عنه»[١].

ومن الأدلة على عدم العقاب إلا لمن يستحق:

ـ قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥].

والعقوبات الواردة في القرآن إما في الدنيا وإما في الآخرة وهي الأكثر، وذكر سبب العقوبة عدلاً من الله وحكمة.

ومن الأمثلة في هذا الباب:

ـ قوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة].

بيَّن تعالى أن في قلوب المنافقين مرضاً، فزادهم الله نظير ما كان في قلوبهم من الشَّكِّ والحيْرة قبل الزيادة، ولهم عذاب أليم في الآخرة.

وفي الآية بيان لحكمته تعالى في تقدير المعاصي على العاصين، وأنه بسبب ذنوبهم السابقة، يبتليهم بالمعاصي اللاحقة الموجبة لعقوباتها كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصَّف: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]، فعقوبة المعصية، المعصية بعدها، كما أن من ثواب الحسنة، الحسنة بعدها، قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ﴾ [مريم: ٧٦][٢].

قال الطبري: «فزادهم الله بما أحدث من حدوده وفرائضِه التي لم يكن فرضَها قبل الزيادة التي زادها المنافقين، إذْ شكُّوا وارتَابوا في الذي أحدَث

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٤٣٧، التفسير القيم ٥٥٣ بتصرف يسير.
(٢) تفسير السعدي ٤٢.

لهم من ذلك إلى المرض والشك الذي كان في قلوبهم في السَّالف»[١].

وقال السعدي: «﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ عقوبة على ذلك المرض الناتج عن أسباب متعددة، كلها منهم، وهم فيها غير معذورين»[٢].

ثم بيَّن تعالى أن سبب عقوبتهم تكذيبهم الله ورسوله، ودعواهم الإيمان وهم كافرون.

قال الطبري: «ثم أخبر تعالى ذكره أنّ لهم عذاباً أليماً بتكذيبهم بما كانوا يكذِّبون من نبوة نبيّه، واعتقاد الكفر به، وبما كانوا يَكذِبون في زعمهم أنهم مؤمنون، وهم على الكفر مُصِرُّون»[٣].

وقال أبو السعود: «﴿بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ الباء للسببية، أو للمقابلة وما مصدرية داخلة في الحقيقة على يكذبون، وكلمة: كانوا مقحمة لإفادة دوام كذبهم وتجدده؛ أي: بسبب كذبهم أو بمقابلة كذبهم المتجدد المستمر الذي هو قولهم: آمنا بالله وباليوم الآخر، وهم غير مؤمنين»[٤].

ـ وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة].

فبيَّن تعالى أن الشرك بالله سبب لعقوبة النار؛ لأن من أشرك بالله فقد سوَّى الخلق بالخالق، وصرف ما خلقه الله له ـ وهو العبادة الخالصة ـ لغير من هي له، فاستحق أن يخلد في النار.

قال ابن كثير: «قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: فيعبد معه غيره، ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾؛ أي: فقد أوجب له النار، وحرم عليه الجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٢٨١.
(٢) القواعد الحسان ٧٨.
(٣) تفسير الطبري ١/ ٢٧٤، وينظر: تفسير البغوي ١/ ٦٦.
(٤) تفسير أبي السعود ١/ ٤٢.

تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأعراف]»(١).

وهذا فيمن مات على الشرك، أما من تاب تاب الله عليه.

قال الطبري: «إذا مات على شركه، فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار»(٢).

وقال السعدي: «وهذه الآية الكريمة في حق غير التائب، وأما التائب فإنه يغفر له الشرك فما دونه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزُّمر: ٥٣]؛ أي: لمن تاب إليه وأناب»(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [النحل].

فبيَّن تعالى أنه يخزي المشركين يوم القيامة وبيَّن تعالى على سبيل التقريعِ العلةَ من عذابهم وهوانهم، فيقول تعالى ذكره يوم القيامة تقريعاً للمشركين بعبادتهم الأصنام: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ﴾، ثم يقول تعالى ذكره: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ إن الخزي اليوم والسوء على من كفر بالله فجحد وحدانيته(٤).

وقال البغوي: «﴿يُخْزِيهِمْ﴾ يهينهم بالعذاب»(٥).

وقال النسفي: «﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ يذلهم بعذاب الخزي سوى ما عذبوا به في الدنيا، ويقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ على الإضافة إلى نفسه، حكاية لإضافتهم؛ ليوبخهم بها على طريق الاستهزاء بهم، ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ﴾ فيهم تعادون وتخاصمون المؤمنين في شأنهم»(٦).

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١٥٧.
(٢) تفسير الطبري ٩/ ٢٠٦.
(٣) تفسير السعدي ١٨١.
(٤) تفسير الطبري ١٧/ ١٩٥.
(٥) تفسير البغوي ٥/ ١٦.
(٦) تفسير النسفي ٢/ ٢٨٤، وينظر: تفسير أبي السعود ٥/ ١٠٨.

ـ وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف].

ففي هذه الآيات كرر جل وعلا ذكر سبب العذاب للتأكيد على استحقاقهم له، فأخبر ﷻ بأن جزاءهم جهنم بسبب كفرهم واستهزائهم بآيات الله وتكذيبهم رسل الله، وإنكارهم معجزات الأنبياء.

قال البيضاوي: «﴿بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾؛ أي: بسبب ذلك»(١).

وقال أبو السعود: «﴿بِمَا كَفَرُوا﴾ تصريح بأن ما ذكر جزاء لكفرهم المتضمن لسائر القبائح التي أنبأ عنها قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾؛ أي: مهزوءاً بهما، فإنهم لم يقتنعوا بمجرد الكفر بالآيات والرسل، بل ارتكبوا مثل تلك العظيمة أيضاً»(٢).

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف].

فلم يذكر سبب هذا الجزاء العظيم فضلاً منه ومنَّة.

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الواقعة].

ففي هذه الآيات من سورة الواقعة ذكر أسباب العذاب لأصحاب الشمال، وهذا عدل من الحَكَم العَدْل جل وعلا.

قال الرازي في تفسير هذه الآية: «ما الحكمة في بيان سبب كونهم في العذاب، مع أنه تعالى لم يذكر سبب كون أصحاب اليمين في النعيم، ولم يقل: إنهم كانوا قبل ذلك شاكرين مذعنين؟

---

(١) تفسير البيضاوي ٣/ ٥٢٦.
(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٥٠.

فنقول: قد ذكرنا مراراً أن الله تعالى عند إيصال الثواب لا يذكر أعمال العباد الصالحة، وعند إيصال العقاب يذكر أعمال المسيئين؛ لأن الثواب فضل، والعقاب عدل، والفضل سواء ذكر سببه أو لم يذكر لا يتوهم في المتفضل به نقص وظلم، وأما العدل فإن لم يعلم سبب العقاب يظن أن هناك ظلماً، فقال: هم فيها بسبب ترفهم»[(١)].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [البقرة].

أي: عقوبة لما سبق من ذنوبهم، وردعاً عما يأتي، وفي ذلك موعظة للمعتبرين.

قال الفراء: «وقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾؛ يعني: المسْخَة التي مُسِخوها، جُعِلت نكالاً لما مضى من الذنوب، ولما يعمل بعدها: ليخافوا أن يعملوا بما عمل الذين مُسخوا فيُمسخوا»[(٢)].

قال ابن عطية: «والنكال: الزجر بالعقاب، والنكل والأنكال قيود الحديد، فالنكال عقاب ينكل بسببه غير المعاقب عن أن يفعل مثل ذلك الفعل، قال السدي: ما بين يدي المسخة: ما قبلها من ذنوب القوم، وما خلفها: لمن يذنب بعدها مثل تلك الذنوب، وهذا قول جيد»[(٣)].

وقال السعدي: «وجعل الله هذه العقوبة ﴿نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾؛ أي: لمن حضرها من الأمم، وبلغه خبرها، ممن هو في وقتهم، ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾؛ أي: من بعدهم، فتقوم على العباد حجة الله، وليرتدعوا عن معاصيه، ولكنها لا تكون موعظة نافعة إلا للمتقين، وأما من عداهم فلا ينتفعون بالآيات»[(٤)].

---

(١) تفسير الرازي ١٤٨/٢٩، وينظر: اللباب ٤٠٨/١٨.
(٢) معاني القرآن ٤٣/١، وينظر: غريب القرآن للسجستاني ٤٥٨، تفسير البغوي ١٠٥/١.
(٣) المحرر الوجيز ١٤١/١، وينظر: تفسير القرطبي ٤٤٤/١.
(٤) تفسير السعدي ٥٤.

ـ وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ].

فالجزاء من جنس العمل، لما كفروا نعمة الله عليهم، جازاهم الله وبين سبب العقاب، وذيله بأن هذه عادة الله في جزاء الكفار.

قال مكي: «ثم قال: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: وهل يكافأ إلا من كفر بالله، فأما جزاء المؤمنين فهو تفضل من الله لا مكافأة؛ لأنه جعل لهم بالحسنة عشراً، فذلك تفضل منه، وجعل للمسيء بالواحدة واحدة مكافأة له على جرمه، فالمكافآت لأهل الكبائر والكفر، والمجازاة لأهل الإيمان مع التفضل»(١).

وقال أبو السعود: «﴿بِمَا كَفَرُواْ﴾ بسبب كفرانهم النعمة، حيث نزعناها منهم، ووضعنا مكانها ضدها، أو بسبب كفرهم بالرسل، ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: وما نجزي هذا الجزاء إلا المبالغ في الكفران أو الكفر»(٢).

وقال السعدي: «ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ]؛ أي: وهل نجازي جزاء العقوبة ـ بدليل السياق ـ إلا من كفر بالله وبطر النعمة؟»(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة].

قال ابن قتيبة: «﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ [المائدة: ٣٨]؛ أي: عظة من الله بما عوقبا به لمن رآهما، ومثله قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾»(٤).

وقال الطبري: «وقوله: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾، يقول: مكافأةً لهما على سرقتهما وعملهما في التلصصّ بمعصية الله»(٥).

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية ٩/ ٥٩١٢.
(٢) تفسير أبي السعود ٧/ ١٢٨.
(٣) تفسير السعدي ٦٧٧.
(٤) غريب القرآن ١٤٣.
(٥) تفسير الطبري ١٠/ ٢٩٧.

وقال ابن كثير: (﴿جَزَآءُۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾؛ أي: مجازاة على صنيعهما السِّيئ في أخذهما أموال الناس بأيديهم، فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك»[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النَّازعات].

أي: عاقبه الله تعالى بسبب ذنوبه، وفيها عبرة لمن يخشى.

قال الطبري: «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ﴾ فعاقبه الله: ﴿نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ يقول: عقوبة الآخرة من كلمتيه، وهي قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النَّازعات: ٢٤]، والأولى قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»[٢].

وقال الفراء: «وقوله ﷻ: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾، إحدى الكلمتين قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، والأخرى قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النَّازعات: ٢٤]»[٣].

وقال ابن كثير: «قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾؛ أي: انتقم الله منه انتقاماً جعله به عبرة ونكالاً لأمثاله من المتمردين في الدنيا»[٤].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه].

في هذه الآيات توعد المعرض عن ذكره بعقوبتين: المعيشة الضنك في الدنيا، وحشرُه أعمى في العقبى، وبيَّن سبحانه أنه هكذا يجزي من أسرف على نفسه بالمعاصي ولم يرجع إلى ربه، ثم ختم آيات الوعيد بقوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾، فهي أشد ألماً، وأدوم زمناً.

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: وهكذا نجزي؛ أي: نثيب من أسرف

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١١٠.
(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٢٠٣.
(٣) معاني القرآن ٣/ ٢٣٣، وينظر: تفسير البيضاوي ٥/ ٤٤٨.
(٤) تفسير ابن كثير ٨/ ٣١٥.

فعصى ربه، ولم يؤمن برسله وكتبه، فنجعل له معيشة ضنكا في البرزخ»[١].

وقال ابن كثير: «قول تعالى: وهكذا نجازي المسرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة، ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الرعد]، ولهذا قال: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾﴾؛ أي: أشد ألماً من عذاب الدنيا، وأدوم عليهم، فهم مخلدون فيه»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصّلت].

في هذه الآيات بيان عقوبة الله تعالى لقوم عاد، وبيَّن حالهم: كفرٌ بالله، وجحدٌ لآياته، واستكبار في الأرض، وقهرٌ لمن حولهم من العباد، مع إعجابهم بقوتهم، ورد عليهم تعالى بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ﴾ فعاقبهم الله عقوبة، تناسب قوتهم، التي اغتروا بها، وأخزاهم الله، فقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ فأرسل عليهم ما هو أعتى منهم، وبين أن هذا عذاب الدنيا بقوله: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾، وبيَّن أن عذاب الآخرة أشد وأخزى، فقال: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

قال ابن كثير: «وقد بيَّن سبب إهلاكه إياهم في غير موضع من القرآن بأنه أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية؛ أي: ريحاً شديدة الهبوب ذات برد شديد جداً، فكان إهلاكهم من جنسهم، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة»[٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة].

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٣٩٧.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ٣٢٤.
(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ١٥٤.

بيَّن تعالى أنه سيذيقهم من العذاب الأدنى في الدنيا، والسبب في ذلك: لعلهم يرجعون إليه ويتوبون من ذنوبهم، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الرُّوم].

قال الطبري: «وأولى الأقوال في ذلك أن يقال: إن الله وعد هؤلاء الفسقة المكذّبين بوعيده في الدنيا: العذاب الأدنى، أن يذيقهموه دون العذاب الأكبر، والعذاب: هو ما كان في الدنيا من بلاء أصابهم، إما شدّة من مجاعة، أو قتل، أو مصائب يصابون بها، فكل ذلك من العذاب الأدنى، ولم يخصص الله تعالى ذكره، إذ وعدهم ذلك أن يعذّبهم بنوع من ذلك دون نوع، وقد عذّبهم بكل ذلك في الدنيا بالقتل والجوع والشدائد والمصائب في الأموال، فأوفى لهم بما وعدهم»(١).

وقال ابن جزي: «﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾؛ يعني: الجوع ومصائب الدنيا، وقيل: القتل يوم بدر، وقيل: عذاب القبر، وهذا بعيد؛ لقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾»(٢).

وقال أبو السعود: «﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾؛ أي: عذاب الدنيا»(٣).

قال الطبري: «وقوله تعالى: ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾؛ أي: عذاب يوم القيامة، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»(٤).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الزُّخرف].

الآية في سياق قصة قوم فرعون، والمراد: الآية المتأخرة أعظم من السابقة، ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ كالجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات، والسبب في ذلك رجاء رجوعهم إلى الإسلام، وترك الشرك والشر

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ١٩١.
(٢) التسهيل ٢/ ٣٥٤.
(٣) تفسير أبي السعود ٧/ ٨٦.
(٤) تفسير الطبري ٢٠/ ١٩١.

قبل فوات الأوان[١].

قال البغوي: «﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ بالسنين، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطمس، فكانت هذه دلالات لموسى، وعذاباً لهم، فكانت كل واحدة أكبر من التي قبلها، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾، عن كفرهم»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المؤمنون].

ثم بيَّن سبب هذه العقوبة الشديدة فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [المؤمنون].

ثم أكَّد بسبب آخر وقطع اعتذارهم فقال جل وعلا: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [المؤمنون].

قال ابن كثير: «هذا تقريعٌ من الله تعالى لأهل النار، وتوبيخ لهم على ما ارتكبوا من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم، التي أوبقتهم في ذلك، فقال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [المؤمنون]؛ أي: قد أرسلت إليكم الرسل، وأنزلت الكتب، وأزلت شُبَهكم، ولم يبق لكم حجة تدلون بها كما قال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك]»[٣].

ـ وقوله تعالى في عقاب الكفار: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الذاريات].

---

(١) ينظر: تفسير السعدي ٧٦٧.
(٢) تفسير البغوي ٧/ ٢١٦.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ٤٩٨.

بيَّن تعالى أن الكذابون الظانون غير الحق لُعِنوا، وهم الذين في لُجَّة من الكفر والضلالة غافلون متمادون، وذكر بعض صفاتهم، ثم بيَّن أنها سبب عذابهم(١).

قال السمرقندي: «﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾؛ يعني: هذا العذاب الذي كنتم به تستهزئون؛ يعني: تستعجلون على وجه الاستهزاء»(٢).

وقال القرطبي: «﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾؛ أي: جعلنا ذلك سبب كفرهم وسبب العذاب»(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ [الانشقاق].

فبيَّن تعالى سبب أخذ الكتاب من وراء ظهره، وعذابه؛ بأنه كان في الدنيا مسروراً ولم يخف من عذاب الله، غافلاً عن الآخرة، منكراً الرجوع إلى الله للحساب والجزاء.

قال ابن كثير: «﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾؛ أي: فرحاً لا يفكر في العواقب، ولا يخاف مما أمامه، فأعقبه ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل، ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾؛ أي: كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله ولا يعيده بعد موته»(٤).

ـ وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾﴾ [الفرقان].

ذكر الله تعالى ملازمة العذاب للكفار بسبب تكذيبهم.

قال ابن عطية: «ثم يقول: لقريش، فأنتم قد كذبتم ولم تعبدوه، فسوف يكون العذاب والتكذيب الذي هو سبب العذاب لزاماً»(٥).

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ٧/ ٤١٥، تفسير السعدي ٨٠٨.
(٢) تفسير السمرقندي ٣/ ٣٢٥.
(٣) تفسير القرطبي ١٩/ ٨١.
(٤) تفسير ابن كثير ٨/ ٣٥٨.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٠.

وقال ابن كثير: «أعقب الله ذكر صفات المؤمنين بذكر جزاء الكافرين ملازماً لهم بسبب تكذيبهم، فقال: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾؛ أي: فسوف يكون تكذيبكم لزاماً لكم؛ يعني: مقتضياً لهلاككم وعذابكم ودماركم في الدنيا والآخرة»[١].

وقال أبو السعود: «فسوف يكون لزاماً؛ أي: يكون جزاء التكذيب أو أثره لازماً يحيق بكم لا محالة حتى يكبكم في النار»[٢].

هذا؛ وعند تأمل آيات العذاب في القرآن نجد عادته ذِكر السبَبِ في الأعم الأغلب، وهذا من حِكْمةِ الله تعالى، وأن عذابه بعَدل، وثوابه بِفَضل، وأن الله جل وعلا لا يُعاقب إلا من يستحق العقوبة؛ وذِكْر السبب ليطمئنَّ العبدُ بأنه كما قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء]، والله تعالى أعلم.

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٣٢.
(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ١٣٣.

الفصل الثاني

عادات القرآن في قصصه

وفيه مبحثان:

- المبحث الأول: ربط القصة بما يناسبها.
- المبحث الثاني: التنويع في عرض القصص.

المبحث الأول

ربط القصة بما يناسبها

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول: توارد قصص الأنبياء عليهم السلام.**
- **المطلب الثاني: ذكر القصص بعد دلائل التوحيد.**
- **المطلب الثالث: تعقيب القصص بذكر المواعظ والعبر.**

المطلب الأول

توارد قصص الأنبياء عليهم السلام

من عادات القرآن الإكثار من ذكر قصص الأنبياء مترابطة في مشهد شريف لطيف؛ ليكون للعاقل أسوةٌ برسل الله وأنبيائه وأوليائه وخاصته من خلقه عليهم السلام؛ وفي قصصهم العبرة والعظة لأولي الألباب.

وقد بيَّن تعالى في القرآن أحوال الأنبياء عليهم السلام مع الخالق سبحانه وتعالى.

قال ابن تيمية: «والقرآن قد أخبر بأدعية الأنبياء، وتوباتهم، واستغفارهم»(١).

فهذا جزء من علاقتهم بربهم جل وعلا.

وبيَّن جل وعلا أحوال الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم.

ومن أهم مقاصد ذكر قصص الأنبياء في القرآن: تثبيت فؤاد النبي ﷺ وتقوية قلبه، وتسليته عما أصابه، وتبشيره بأن العاقبة له ولأتباعه.

كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود].

---

(١) الرد على البكري ١/ ١٦١.

قال البغوي: «معناه: وكل الذي تحتاج إليه من أنباء الرسل؛ أي: من أخبارهم وأخبار أممهم، نقصها عليك لنثبت فؤادك؛ لنزيدك يقيناً ونقوي قلبك، وذلك أن النبي ﷺ، إذا سمعها كان في ذلك تقوية لقلبه على الصبر على أذى قومه»(١).

ومن المقاصد في ذكر قصص الأنبياء أيضاً أخذ العظة العبرة بمن سبق.

قال الرازي: «اعلم أن المقصود من ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام حصول العبرة لمن يسمعها»(٢).

وقال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ [هود: ١٢٠]: «والصحيح: في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف نَجّاهم الله والمؤمنين بهم، وأهلك الكافرين، جاءك فيها قَصَصُ حق، ونبأ صدق، وموعظة يرتدع بها الكافرون، وذكرى يتوقر بها المؤمنون»(٣).

وقال جل وعلا: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١].

قال ابن القيم: «ويكفِي تدبُّر قصص الأنبياء عليهم السلام مع أممهم، وشأن نبينا وأذى أعدائه له بما لم يؤذه من قبله»(٤).

وقال السعدي: «﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾؛ أي: قصص الأنبياء والرسل مع قومهم، ﴿عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: يعتبرون بها، أهل الخير وأهل الشر، وأن مَن فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم من كرامة أو إهانة، ويعتبرون بها أيضاً؛ ما لله من صفات الكمال والحكمة العظيمة، وأنه الله الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له»(٥).

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٠٧، وينظر: تفسير أبي السعود ٤/ ٢٤٨.
(٢) تفسير الرازي ١٤/ ٤٤.
(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٦٣.
(٤) مدارج السالكين ٢/ ٣٢٣.
(٥) تفسير السعدي ٤٠٧.

وعادة القرآن توارد قصص الأنبياء عليهم السلام في السياق الواحد، ومن الأمثلة على ذلك:

ـ ما جاء في سورة الأعراف من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف] إلى قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف]، إلى قوله سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۘ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف] إلى قوله جل وعلا: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأعراف] إلى قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف] إلى قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأعراف] إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف].

ـ وكذا ما جاء في سورة هود من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾ [هود] إلى قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [هود] إلى قوله: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود] إلى قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ

﴿٧٧﴾﴾ [هود] إلى قوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ [هود] إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾ [هود]، ثم قال تعالى بعدها: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ [هود]، وفي ختام قصص الأنبياء قال جل وعلا: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود].

قال البقاعي: «﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]، بسَط تعالى حال من وقعَت الإحالة عليه[1]، واستوفى الكثير من قصصهم إلى آخر سورة هود، إلى قوله سبحانه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ﴾، فتأمَّل بما افتُتِحت به السورةُ المقصودُ بها قصص الأمم، وبما اختتمت، يَلُح لك ما أشرت إليه، والله أعلم بمراده، وتأمل افتتاحَ سورة الأعراف بقوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾ [الأعراف: ٧]، وختْمَ القصص فيها بقوله: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٦]»[2].

ـ ومن الأمثلة كذلك ما جاء في سورة الشعراء من قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء]، إلى قوله سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الشعراء]، إلى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الشعراء]، إلى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الشعراء]، إلى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الشعراء].

---

(١) المراد: الإحالة على الاعتبار بالأمم السالفة وما كان منهم حين كذبوا أنبياءهم، والذي تكرر كثيراً في سورة الأنعام، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام]، وبعدها قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام]، ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟﴾ [الأنعام]، وغيرها. ينظر: نظم الدرر ٣/ ٥.

(٢) نظم الدرر ٣/ ٥.

فهذه الأمثلة وغيرها في كتاب الله تعالى تدل على الترابط بين الرسل والرسالات، والسر ـ والله أعلم ـ وجود النسبة الكبيرة في الاتفاق بين الأنبياء، وبين أحوال الأمم مع أنبيائهم.

ولذلك أمر الله بتذكُّر قصص الأنبياء في غير ما آية، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ [مريم]، إلى قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾ [مريم]، إلى قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم]، إلى قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾ [مريم].

قال ابن تيمية خلال حديثه عن الذكر: «ومما أُمِروا به تذكرةَ قصص الأنبياء المتقدمين، كما قال: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ﴾ [مريم: ٤١]، ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ﴾ [مريم: ٥١]، ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ﴾ [مريم: ٥٤]، ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ﴾ [مريم: ٥٦]، وقال: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ﴾ [ص: ١٧]، ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص: ٤٥]، ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ﴾ [ص: ٤٨].

ومما أمروا به تَذْكِرة ما وعدوا به من الثواب والعقاب، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾ [ص]»[1].

وعند التأمل في أوجه توارد قصص الأنبياء في السياق الواحد يتبين لي أن بينها قواسم مشتركة ومنها:

١ ـ اتفاقهم في أمر التوحيد، وهو أعظم أصلٍ اتفقوا عليه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال جل وعلا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء].

وهذا بيِّنٌ في البدء بدعوتهم بقول: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ﴾ [الأعراف: ٥٩].

قال ابن تيمية: «وقد أخبر الله تعالى عن كل من الرسل مثل: نوح،

(١) مجموع الفتاوى ١٦/ ١٩٣.

وهود، وصالح، وشعيب، وغيرهم، أنهم قالوا لقومهم: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ وهذا أول دعوة الرسل وآخرها»(١).

٢ ـ اجتماعهم في أصول الشريعة، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [الشورى].

وقال تعالى بعد ذكر عدد من قصص الأنبياء: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿...وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١﴾ [مريم: ٣١]، وقال تعالى عن إسماعيل: ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥﴾ [مريم]، وأمر الله نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر].

٣ ـ ومما اجتمع في الأنبياء: الحرص الكامل على الدعوة إلى الله والنصح لأقوامهم، وكل قصص الأنبياء مع أقوامهم دليل على هذا الحرص كما قال الله على لسان نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ٥﴾ [نوح] وما بعدها من الآيات.

وقال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٢﴾ [الأعراف].

وقال تعالى عن هود عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٞ ٦٨﴾ [الأعراف].

وقال تعالى عن صالح عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٧٩﴾ [الأعراف].

وقال تعالى عن شعيب عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٩٣﴾ [الأعراف].

---

(١) منهاج السُّنَّة النبوية ٥/٣٤٦.

وقال تعالى عن أنبيائه: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب].

وقال تعالى عن رسول الله ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: ١٠٨].

قال ابن تيمية: «فإن الله جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم، وتكميل ما يُصلِحهم في معاشهم ومعادهم، وبُعثوا جميعاً بالدعوة إلى الله، وتعريف الطريق الموصل إليه، وبيان حالهم بعد الوصول إليه»(١).

واتفقوا في أمر أقوامهم بالتقوى، فكل نبي يأمر أمته بذلك، كما بيَّن تعالى في قصة كل نبي أنه يقول لقومه: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [الشعراء]، فتكرر هذا الأمر مع كل نبي ـ في سورة الشعراء ـ ومع بعضهم مرتين.

٤ ـ اتفق الأنبياء على تذكير أقوامهم بنعم الله تعالى، وما حصل للأمم الكافرة قبلهم، كما قال تعالى عن هود عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقال تعالى عن صالح عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف].

٥ ـ ومن مواضع الاتفاق بين الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام عدم أخذهم أجراً مقابل ما جاءوا به من الهدى والوحي والدعوة، بل يفعلون ذلك لوجه الله، وأجمع دليل على ذلك، ما بيّنه جل وعلا حكاية عن أنبيائه في قصصهم ـ نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب عليهم الصلاة والسلام ـ كل

(١) مجموع الفتاوى ١٩/ ٩٥.

يقول لقومه: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الشعراء]، إلى آخر السورة.

وقال تعالى آمراً نبينا محمداً ﷺ: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾ [سبأ].

وقال تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الطور: ٤٠، القلم: ٤٦].

وقال تعالى على لسان صاحب قرية يس: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يس].

٦ ـ وقد اجتمع للأنبياء كلِّهم النصرُ والتأييد من الله تعالى، وهذا بيِّن من خلال ما حكاه تعالى عنهم في قصصهم، وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يونس]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الصافات]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر].

قال السعدي: «ولما ذكر في سورة الشعراء قصص الأنبياء مع أممهم، ختم كل قصة بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الشعراء: ٩، ٦٨، ١٠٤، ١٢٢، ١٤٠، ١٥٩، ١٧٥، ١٩١] فإن كل قصة تضمنت نجاة النبي وأتباعه، وذلك برحمة الله ولطفه، وتضمنت إهلاك المكذبين له، وذلك من آثار عزته»[(١)].

وبعد هذا؛ فإن من أعظم وجوه الانتفاع بالقرآن تدبرُ أخبار الأنبياء وقصصهم التي ساقها القرآن.

ومنها قصص الأنبياء الواردة في السياق الواحد، فالنظر فيما بينها من

(١) القواعد الحسان ٥٧.

تشابه لفظي ومعنوي يُظهر إعجاز القرآن في أسلوبه، ومن خلالها تتحقق الثمرة المرجوَّة من الاقتداء برسل الله وأنبيائه ـ في عبوديتهم وطريقتهم في التعامل مع الله تعالى، ومع المخلوقين ـ ولِتَحصل العبرة من أحوال الأمم السابقة، والله تعالى أعلم.

المطلب الثاني

ذكر القصص بعد دلائل التوحيد

من عادات القرآن تكرار ما يستحق التكرار من الأمور المهمة؛ ليجد سبيله إلى النفوس النافرة، والطباع العصية، ومن ذلك: تقريره لعقيدة التوحيد مع اقترانها بذكر القصص(١).

قال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود].

قال الزمخشري: «﴿فُصِّلَتۡ﴾ كما تُفَصل القلائد بالدلائل، من دلائل التوحيد والأحكام والمواعظ والقصص»(٢).

وقال الرازي: «اعلم أن من عادته ﷻ في هذا الكتاب الكريم أنه يخلط هذه الأنواع الثلاثة بعضها بالبعض؛ أعني: علم التوحيد، وعلم الأحكام، وعلم القصص، والمقصود من ذكر القصص: إما تقرير دلائل التوحيد، وإما المبالغة في إلزام الأحكام والتكاليف، وهذا الطريق هو الطريق الأحسن، لا إبقاء الإنسان في النوع الواحد؛ لأنه يوجب الملال، فأما إذا انتقل من نوع من العلوم إلى نوع آخر فكأنه يشرح به الصدر ويفرح به القلب، فكأنه سافر من بلد إلى بلد آخر، وانتقل من بستان إلى بستان آخر، وانتقل من تناول طعام لذيذ إلى تناول نوع آخر، ولا شك أنه يكون ألذ وأشهى»(٣).

---

(١) ينظر: تفسير الرازي ١٩/ ١٥٥، مناهل العرفان ٢/ ٢٦٢.
(٢) الكشاف ٢/ ٣٥٨، وينظر: البحر المحيط ٥/ ٢٠١.
(٣) تفسير الرازي ٧/ ٣.

وقال السعدي في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٤٤]: «المقصود الأعظم من سياق القصص أنه يحصُل بها العبرة، وأعظم العبر: الاستدلال بها على التوحيد والرسالة، والبعث وغيرها من الأصول الكبار»(١).

ومن الأمثلة على ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة].

هذه أعظم آية في كتاب الله تعالى ـ آية الكرسي ـ وفيها تقرير أصل التوحيد وأساس العبادة؛ ليستشعر العبد عظمة الله، فيطيع أوامره، ويمتثل أحكامه، وبيَّن سبحانه أنه ولي المؤمنين، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت، ثم قص الله بعدها محاجة النمرود الذي عارض ربوبية الله مع إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وبيان ما وفق الله نبيه من دحض الشبهات، فصارت مثلاً للمؤمن والكافر، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة].

وأتبعها بقصة صاحب الحمار: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ...﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وفيها إثبات الحشر والبعث.

قال البقاعي: «ولما ذكر ما له ﷻ من الإحاطة والعظمة، وأتبعه أمر الإيمان وتوليه حزبه، وأمر الكفران وخذلانه أهله، أخذ يدل على ذلك بقصة

(١) تفسير السعدي ٩٦٧.

المحاج للخليل، والمار على القرية، مذكراً بقصة الذين قال لهم: موتوا ثم أحياهم، في سياق التعجيب من تلك الجرأة»[١].

وبعد القصتين ذكر الله تعالى قصة ثالثة تدل على البعث، وهي قصة إبراهيم حين طلب رؤية إحياء الموتى ليطمئن قلبه.

وقال الرازي: «اعلم أنه تعالى ذكر هاهنا قصصاً ثلاثة، الأولى منها: في بيان إثبات العلم بالصانع، والثانية: في إثبات الحشر والنشر والبعث، والقصة الثالثة: وهي أيضاً دالة على صحة البعث، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠]»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحجر].

في بداية هذه السورة تقرير النبوة، ثم في هذه الآيات الحديث عن دلائل التوحيد، ثم ذكر تعالى قصة الخلق وبعده أحوال القيامة وبيان صفة الأشقياء والسعداء، في الآيات من [٢٥، ٥٠] ثم أتبعها بقصص الأنبياء.

فقال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر]، إلى قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الحجر]، إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الحجر]، إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الحجر].

---

(١) نظم الدرر ١/ ٥٠٣.
(٢) تفسير الرازي ٧/ ١٩، ٣٣.

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما بالغ في تقرير أمر النبوة، ثم أردفه بذكر دلائل التوحيد، ثم ذكر عقيبه أحوال القيامة، وصفة الأشقياء والسعداء، أتبعه بذكر قصص الأنبياء عليهم السلام؛ ليكون سماعها مرغباً في الطاعة الموجبة للفوز بدرجات الأنبياء، ومحذراً عن المعصية لاستحقاق دركات الأشقياء، فبدأ أولاً بقصة إبراهيم عليه السلام، والضمير في قوله: ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ راجع إلى قوله: ﴿عِبَادِى﴾ والتقدير: ونبئ عبادي عن ضيف إبراهيم...» إلخ[1].

ـ ومن الأمثلة ما جاء في سورة الأنبياء من بيان أصول التوحيد، والرسالة، والبعث، والجزاء، ثم ذكرت جملة من قصص الأنبياء عليهم السلام.

يقول تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾ [الأنبياء]، إلى قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝٢١ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢﴾ [الأنبياء]، إلى قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۝٣٤ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾ [الأنبياء]، إلى قوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٣٩﴾ [الأنبياء]، إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ۝٤٥﴾ [الأنبياء].

ثم جاءت قصص الأنبياء تسلية للنبي ﷺ وتثبيتاً لقلبه، وأن إنزال الوحي سُنَّة الله في أنبيائه، فجاءت قصة موسى وهارون، وإبراهيم، ولوط، وإسحاق ويعقوب، ونوح، وداود وسليمان، وأيوب، وإسماعيل وإدريس وذي الكفل، ويونس، وزكريا ويحيى، وعيسى عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾ [الأنبياء]، إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١﴾ [الأنبياء]، إلى قوله: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ

(١) تفسير الرازي ١٩/ ١٥٥.

﴿ٱلْخَبَٰٓئِثِۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنبياء]، إلى قوله: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنبياء]، إلى قوله: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنبياء] إلى آخر الآيات.

قال الرازي: «اعلم أنه سبحانه لما تكلم في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد شرع في قصص الأنبياء عليهم السلام تسلية للرسول عليه السلام فيما يناله من قومه وتقوية لقلبه على أداء الرسالة والصبر على كل عارض دونها...»[1].

ـ وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [المؤمنون]، إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون]، إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون].

فبعد أن أمر الله تعالى بالعبادات، وأورد ما يدل على وجوده وقدرته جل وعلا، ومنها: خلق الإنسان، وخلق السماوات السبع، وإنزال الماء من السماء، وخلق الحيوانات وما فيها من المنافع الكثيرة.

أتبع ذلك بقصص الأنبياء: قصة نوح، وقصة هود، وقصة صالح ولوط وشعيب مجملة، وقصة موسى وهارون، وقصة عيسى وأمه.

والمراد: بيان كفران الناس بعد تعداد النعم عليهم، والإشارة إلى ما حل بالأمم السابقة من زوالها، وأنها مماثلة لكفار مكة.

قال الرازي: «واعلم أنه سبحانه لما بيَّن دلائل التوحيد أردفها بالقصص كما هو العادة في سائر السور وهي هاهنا، القصة الأولى: قصة نوح عليه السلام...»[2].

ـ ومن الأمثلة ما جاء في سورة: الفرقان، حيث بُدِئت بإثبات الوحدانية لله تعالى، وصحة الرسالة، ووقوع البعث والجزاء يوم القيامة، يقول

(١) تفسير الرازي ٢٢/ ١٥٤.
(٢) تفسير الرازي ٢٣/ ٧٩.

تعالى في وحدانيته: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان]، إلى قوله تعالى عن بشرية الرسل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، إلى قوله عن رهبة القيامة: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان].

وذكر سبحانه شبهات المشركين والرد عليها، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان].

وبعد بيان شبهات المشركين حول القرآن والنبوة والبعث، ذكر قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم وما نزل بهم من عذاب بسبب تكذيبهم للرسل؛ كقصة موسى وهارون، وقوم نوح، وعاد، وثمود، وأصحاب الرس، وقوم لوط، وأمثالهم من الكافرين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [الفرقان]، إلى قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾ [الفرقان]، إلى قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ [الفرقان]، ثم قال تعالى عن قوم لوط: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾ [الفرقان].

قال الرازي: «واعلم أنه تعالى بعد أن تكلم في التوحيد، ونفي الأنداد، وإثبات النبوة، والجواب عن شبهات المنكرين لها، وفي أحوال القيامة، شرع في ذكر القصص على السُّنَّة المعلومة»(١).

ثم ذكر الله تعالى بعد هذه القصص التي فيها جهل المعرضين عن أدلة التوحيد ومناقشتهم، وعدم إيمانهم، ذكر أدلة على وجود الصانع القادر على كل شيء.

---

(١) تفسير الرازي ٢٤/ ٧٠.

فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾، إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾، إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٥ ـ ٥٤].

فذكر هنا الأدلة من الظواهر الكونية التي يدكها ويشاهدها كل مخلوق، وهي خلق الظل، والليل والنهار، والرياح والأمطار، والبحار المالحة والعذبة، والإنسان من الماء.

قال ابن كثير: «من هاهنا شرع تعالى في بيان الأدلة الدالة على وجوده، وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾»[1].

ـ ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في سورة: ق والقرآن المجيد، فهي مشتملة على أصول العقيدة مع التأكيد على إثبات البعث، والرد على منكريه، وبعد ذلك الإشارة إلى قصص إهلاك الأمم السابقة المكذبين بالرسل، تحذيراً لكفار مكة أن يصيبهم ما أصاب غيرهم.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق]، إلى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق].

ـ ومن الأمثلة ما جاء في سورة: القمر، وفيها: تقرير أصول العقيدة، من إنزال الوحي، وتهديد المكذبين بآياته، وإثبات البعث، والجزاء يوم القيامة، حيث يقول تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ١١٣.

سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر].

وأتبع هذا جل وعلا بإنذار كفار مكة من عذاب مشابه لعذاب الأمم السابقة؛ كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم ولوط، وآل فرعون جزاء تكذيبهم الرسل، وأفردت كل قصة عن الأخرى ـ وحال النبي ﷺ كحال الرسل المتقدمين مع أقوامهم ـ حيث يقول سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾ ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾﴾، إلى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر: ٩ ـ ٤٢].

قال ابن القيم: «وهكذا كانت قراءته ﷺ في المجامع الكبار كالأعياد ونحوها، بالسورة المشتملة على التوحيد، والمبدأ، والمعاد، وقصص الأنبياء مع أممهم، وما عامل الله به من كذبهم، وكفر بهم من الهلاك والشقاء، ومن آمن منهم وصدقهم من النجاة والعافية، كما كان يقرأ في العيدين بسورتي: ق والقرآن المجيد، و: اقتربت الساعة وانشق القمر...»(١).

فظهر بذلك كله أن عادة القرآن ربط الدعوة إلى التوحيد وتقرير الأحكام وذكر القصص بعضها ببعض، والحكمة ـ والله أعلم ـ من ذكر القصص تقرير دلائل التوحيد، والتأكيد على أهمية تطبيق الأحكام والتكاليف، وفي هذا الأسلوب رحمة بالإنسان؛ لأن طبعه مجبول على الملل من الأسلوب الواحد، فالانتقال من أسلوب إلى أسلوب يشرح الصدر، ويجدد النشاط، ويصل بالإنسان إلى كمال الذوق واللذة، وقرب الفهم للمعنى، وسهولة العمل بالمقتضى، والله أعلم.

---

(١) زاد المعاد ١/ ٤٠٧.

المطلب الثالث

تعقيب القصص بذكر المواعظ والعبر

ثنَّى الله تعالى في كتابه القصص والمواعظ، لما فيها من التذكير والاعتبار.

قال مكي: «تُثنى في القرآن القصص والمواعظ والأخبار، دل على ذلك قوله: ﴿مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزُّمر: ٢٣]»(١).

وقال الزركشي: «وقيل: سمي القرآن مثاني؛ لتكرار الحكم والقصص والمواعظ»(٢).

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾ [القمر]، قال ابن جزي: «الأنباء هنا يراد بها: ما ورد في القرآن من القصص، والبراهين، والمواعظ»(٣).

وقصص القرآن فيها المواعظ والعبر، ومن تأمل في عادة القرآن وجد أن الموعظة والدروس المستفادة من القصة تمتد بعدها.

قال ابن تيمية: «ونظير ذلك ذكر القصص، فإنها كلها أمثال، هي أصول قياس واعتبار»(٤).

ومن الأدلة على ذلك:

ـ قوله تعالى في ختام القصص في سورة الأعراف: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٧٦﴾ [الأعراف: ١٧٦].

قال الطبري: «وأما قوله: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ﴾ فإنه يقول لنبيه محمد ﷺ: فاقصص يا محمد هذا القصص، الذي اقتصصته عليك من نبأ الذي آتيناه آياتنا، وأخبارَ الأمم التي أخبرتك أخبارهم في هذه السورة، واقتصَصْت عليك نبأهم ونبأ أشباههم، وما حلّ بهم من عقوبتنا، ونزل بهم حين كذبوا رسلَنا من

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية ٦/ ٣٩٢٥.
(٢) البرهان ١/ ٢٨٠.
(٣) التسهيل ٣/ ١٠٤.
(٤) دقائق التفسير ١/ ٢٠٥.

نقمتنا على قومك من قريش، ومَنْ قِبَلَك من يهود بني إسرائيل، ليتفكروا في ذلك، فيعتبروا وينيبوا إلى طاعتنا، لئلا يحلّ بهم مثل الذي حلّ بمن قبلهم من النّقم والمثلات»(١).

ثم قال تعالى بعدها: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف].

قال ابن كثير: «يقول تعالى ساء مثلاً مثلُ القوم الذين كذبوا بآياتنا؛ أي: ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التي لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة، فمن خرج عن حَيِّز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه، واتبع هواه، صار شبيهاً بالكلب، وبئس المثل مثله»(٢).

وقال البقاعي: «فتأمل هذا الإيماء بعد ذكر القصص، وكيف ألحق من كذب رسول الله ﷺ من العرب وغيرهم بمن قص ذكره من المكذبين، وتأمل افتتاح ذكر الأشقياء بقصة إبليس، وختمها بقصة بلعام، وكلاهما ممن كفر على علم، وفي ذلك أعظم موعظة، قال الله تعالى إثر ذلك: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ [الأعراف: ١٧٨]»(٣).

ـ وقوله جل وعلا: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود].

قال مكي: «المعنى: وجاءك في هذه السورة الحق، دون غيرها، بل في الكل جاء الحق، وذُكِّر في هذه السورة بهذا تأكيداً لما فيها من القصص والمواعظ، وذكر الجنة والنار ومقام الفريقين»(٤).

وقال السعدي: «ومن فوائد قصة شعيب: الترهيب بأخذات الأمم وما جرى عليهم، وأنه ينبغي أن تذكر القصص التي فيها إيقاع العقوبات بالمجرمين في سياق الوعظ والزجر، كما أنه ينبغي ذكر ما أكرم الله به أهل التقوى عند

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٢٧٤.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٥١٢.
(٣) نظم الدرر ٣/ ٥.
(٤) الهداية إلى بلوغ النهاية ٥/ ٣٤٩٢، وينظر: معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٩١.

الترغيب والحث على التقوى»[١].

فعادة القرآن تعقيب القصص بالمواعظ، فبعد كل قصة موعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ومن الأمثلة:

قصص الأنبياء الواردة في سورة هود؛ فبعد أن بيَّن الله تعالى أن القرآن وحي منه سبحانه، وأثبت بعثَة النبي ﷺ، وبيَّن حال المؤمنين والكافرين، وحضَّ على الاعتبار بقوله: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [هود]، ذكر عدداً من قصص الأنبياء للعظة والعبرة، وفيها بيان اشتراك الأنبياء في الدعوة إلى أصول واحدة، وهي عبادة الله وحدة، والإيمان بالبعث والجزاء، وفيها التنبيه على ملازمة الصبر على أذى الكفار حتى يكفِيَه الله أمرهم.

والشاهد: أن كل قصة من القصص بعدها موعظة موجزة، وأذكر هذه المواعظ على سبيل الإجمال:

١ ـ فبعد قصة نوح عليه السلام، قال تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٨، ٤٩].

فهذه الآيات بعد قصة نوح عليه السلام، وفيها الإشارة إلى أمرين:

الأول: بيان تكريم الله تعالى لنوح عليه السلام والمؤمنين معه، بالسلامة، وبالبركة.

الثاني: الإخبار بأنباء غائبة عن الخلق؛ لتكون عظة وعبرة، ثم حث على الصبر كما صبر نوح على أذى الكفار، فإن النصر والنجاة للمتقين.

قال الطبري: «القول في تأويل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود].

(١) تفسير السعدي ٣٨٨.

يقول تعالى ذكره لنبيه محمّد ﷺ: هذه القصة التي أنبأتك بها من قصة نوح وخبره وخبر قومه ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾، يقول: هي من أخبار الغيب التي لم تشهدها فتعلمها ﴿نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾، يقول: نوحيها إليك نحن، فنعرفكها ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۛ﴾، الوحي الذي نوحيه إليك، ﴿فَٱصۡبِرۡۖ ۝٧﴾، على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته، وما تلقى من مشركي قومك، كما صبر نوح ﴿إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ۝٤٩﴾، يقول: إن الخير من عواقب الأمور لمن اتقى الله، فأدَّى فرائضه، واجتنب معاصيه»[1].

٢ ـ وبعد قصة هود عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ۝٥٩ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۖ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ۝٦٠﴾ [هود].

جمع الله تعالى في هذه الآيات خلاصة وصف قوم عاد في ثلاثة أمور: جحود بآيات ربهم، وعصيان رسله، واتباعهم رؤساؤهم على الباطل، ثم ذكر عاقبتهم في الدنيا والآخرة بالإبعاد عن رحمة الله، ثم كرر تأكيداً للبعد بسبب كفرهم ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ۝٦٠﴾.

قال أبو السعود: «﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ﴾ دعاء عليهم بالهلاك، مع كونهم هالكين أي هلاك، تسجيلاً عليهم باستحقاق الهلاك، واستيجاب الدمار، وتكريرُ حرف التنبيه وإعادةُ عادٍ للمبالغة في تفظيع حالهم، والحثِّ على الاعتبار بقصتهم»[2].

٣ ـ وبعد قصة صالح عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ۝٦٧ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۖ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ۝٦٨﴾ [هود].

هذه في ختام قصة صالح عليه السلام مع ثمود، بيَّن تعالى عقوبة الظالمين بالصاعقة التي قطعت قلوبهم وأهلكتهم، فصاروا جثثاً هامدة، وأنهم لسرعة هلاكهم بالصيحة كأنهم لم يوجدوا في الدنيا، ولم يسكنوا ديارهم، بسبب

(١) تفسير الطبري ١٥/٣٥٦.
(٢) تفسير أبي السعود ٤/٢٢٠.

كفرهم، وجحودهم بآيات الله، فلهم الشقاء والبعد عن رحمة الله، وفي هذا عظة وعبرة لمن بعدهم.

قال السعدي: «﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾؛ أي: كأنهم لما جاءهم العذاب ما تمتعوا في ديارهم، ولا أنسوا بها، ولا تنعموا بها يوماً من الدهر، قد فارقهم النعيم، وتناولهم العذاب السرمدي الذي لا ينقطع»(١).

٤ ـ وبعد قصة لوط عليه السلام، قال تعالى: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود].

قال الطبري: «وأما قوله: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾، فإنه يقول تعالى ذكره متهدداً مشركي قريش: وما هذه الحجارة التي أمطرتها على قوم لوط، من مشركي قومك يا محمد ببعيد أن يمطروها، إن لم يتوبوا من شركهم، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»(٢).

وقال مكي: «ثم قال تعالى: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾؛ أي: من ظالمي قومك يا محمد، فهذا على التهديد للمشركين»(٣).

وقال الشنقيطي: «وقال في حجارة قوم لوط التي أهلكوا بها، أو ديارهم التي أهلكوا فيها: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾، وهو تهديد عظيم منه تعالى لمن لم يعتبر بحالهم، فيجتنب ارتكاب ما هلكوا بسببه، وأمثال ذلك كثير في القرآن»(٤).

٥ ـ وبعد قصة شعيب عليه السلام، قال تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود].

وهذه الموعظة يُقال فيها ما قيل الموعظة بعد قصة ثمود.

قال الطبري: «كأن لم يعش قوم شعيب الذين أهلكهم الله بعذابه، حين أصبحوا جاثمين في ديارهم»(٥).

---

(١) تفسير السعدي ٣٨٥.
(٢) تفسير الطبري ١٥/ ٤٣٨.
(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية ٥/ ٣٤٤٩.
(٤) أضواء البيان ١/ ٣٧٦.
(٥) تفسير الطبري ١٥/ ٤٦٤، وينظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٤٤٩.

وقال أبو السعود: «وإنما شبه هلاكهم بهلاكهم؛ لأنهما أهلكتا بنوع من العذاب، وهو الصيحة، غير أن هؤلاء صيح بهم من فوقهم، وأولئك من تحتهم»(١).

وقال السعدي: «﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾؛ أي: قد اشتركت هاتان القبيلتان في السحق والبعد والهلاك»(٢).

ـ ثم قال تعالى في ختام القصص في سورة هود: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [هود].

بعد أن ذكر الله قصص الأنبياء مع الأمم السابقة، بيَّن ما فيها من العظة والعبرة، فقال تعالى لرسوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾ وأن في هذه القصص علامة على رسالتك، وإنذار وموعظة وذكرى للمؤمنين.

ثم ذكر بعدها العبرة بجزاء الآخرة لكل من الأشقياء والسعداء، بالترهيب من عصيان الله، والترغيب بالإيمان بالله، فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [هود] الآيات.

قال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ المعنى: إن في هذه القرى وما حل بها لعبرة، وعلامة اهتداء لمن خاف أمر الآخرة، وتوقع أن يناله عذابها، فنظر وتأمل، فإن نظره يؤديه إلى الإيمان بالله تعالى»(٣).

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما ذكر قصص الأولين قال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٣٨.
(٢) تفسير السعدي ٣٨٨.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٠.

أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ﴾ والفائدة في ذكرها أمور، أولها: أن الانتفاع بالدليل العقلي المحض إنما يحصل للإنسان الكامل وذلك إنما يكون في غاية الندرة فأما إذا ذكرت الدلائل ثم أكدت بأقاصيص الأولين صار ذكر هذه الأقاصيص كالموصل لتلك الدلائل العقلية إلى العقول» إلى أن قال: «الفائدة الرابعة: أن الذين يسمعون هذه القصص يتقرر عندهم أن عاقبة الصديق والزنديق والموافق والمنافق إلى ترك الدنيا، والخروج عنها، إلا أن المؤمن يخرج من الدنيا مع الثناء الجميل في الدنيا، والثواب الجزيل في الآخرة، والكافر يخرج من الدنيا مع اللعن في الدنيا، والعقاب في الآخرة، فإذا تكررت هذه الأقاصيص على السمع، فلا بد وأن يلين القلب، وتخضع النفس، وتزول العداوة، ويحصل في القلب خوف يحمله على النظر والاستدلال، فهذا كلام جليل في فوائد ذكر هذه القصص»[1].

ومن الأمثلة على تعقيب القصص بالمواعظ:

القصص الواردة في سورة الكهف؛ فكل قصة يعقبها موعظة تناسب معناها.

المثال الأول: قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ١٠﴾ [الكهف]، إلى آخر الآيات في قصة الفتية الذين فروا بدينهم لئلا يُفتنوا.

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ١٠﴾ يخبر تعالى عن أولئك الفتية، الذين فروا بدينهم من قومهم لئلا يفتنوهم عنه، فَهَرَبوا منه فَلَجَؤُوا إلى غار في جبل ليختفوا عن قومهم، فقالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالى رحمته ولطفه بهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ﴾؛ أي: هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترنا عن قومنا ﴿وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ١٠﴾؛ أي: وقدِّر لنا من أمرنا هذا رشداً؛ أي: اجعل عاقبتنا رشداً.

(١) تفسير الرازي ١٨/ ٤٥.

وقوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الكهف]؛ أي: ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف، فناموا سنين كثيرة ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ [الكهف: ١٢]؛ أي: من رقدتهم تلك، وخرج أحدهم بدراهم معه ليشتري لهم بها طعاماً يأكلونه، كما سيأتي بيانه وتفصيله؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾؛ أي: المختلفين فيهم، ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾ قيل: عدداً، وقيل: غاية فإن الأمد الغاية»[(١)].

ففي هذه القصة العبرة، وكيف نجاهم الله ويسر أمورهم لما فعلوا الأسباب.

قال السعدي: «فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة، إلى محل يمكن الاستخفاء فيه، وبين تضرعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم، وعدم اتكالهم على أنفسهم وعلى الخلق، فلذلك استجاب الله دعاءهم، وقيض لهم ما لم يكن في حسابهم»[(٢)].

ثم جاء التفصيل أكثر في خبرهم وحالهم.

والشاهد هنا: أنه بعد هذه القصة جاءت الوصية بالصبر على صحبة الصالحين وترك أصحاب الهوى، والوعظ بأن لا تنسيك زينة الحياة الدنيا ذكر الله والدار الآخرة، فقال جل وعلا: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف].

قال السعدي: «ففيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم، ومخالطتهم وإن كانوا فقراء فإن في صحبتهم من الفوائد، ما لا يحصى.

﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فإن هذا ضار غير نافع، وقاطع عن المصالح الدينية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب بالدنيا، فتصير الأفكار والهواجس فيها، وتزول من القلب الرغبة في الآخرة، فإن زينة الدنيا تروق للناظر، وتسحر

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٣٩.
(٢) تفسير السعدي ٤٧١.

العقل، فيغفل القلب عن ذكر الله، ويقبل على اللذات والشهوات، فيضيع وقته، وينفرط أمره، فيخسر الخسارة الأبدية، والندامة السرمدية»[١].

ثم قال تعالى من باب التهديد والوعيد الشديد[٢]: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف]، وما بعدها.

ففي هذه الآية أن على النبي البلاغ وعلى العباد السمع والطاعة، فمن آمن سَعِد في الدنيا والآخرة، ومن كفر شَقِي في الدنيا والآخرة.

قال ابن جزي: «أي: هذا هو الحق فمن شاء فليؤمن لفظه أمر وتخيير ومعناه أن الحق قد ظهر فليختر كل إنسان لنفسه إما الحق الذي ينجيه أو الباطل الذي يهلكه ففي ضمن ذلك تهديد»[٣].

وفي هذا موعظة بليغة بالجمع بين الترهيب والترغيب.

المثال الثاني: قصة صاحب الجنتين الذي آتاه الله من كل خير؛ فكفر بأنعم الله وأنكر البعث، وهذه إشارة إلى فتنة المال، فأهلك الله الجنتين.

قال الله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾﴾ [الكهف]، الآيات.

هذه الآية مثل للغني الكافر والفقير المؤمن، وبأسلوب القصة والحوار، فالكافر افتخر بماله وأنصاره على فقراء المسلمين، فعاقبه الله بهلاك ماله، وحسرته في الدنيا والآخرة على شركه وتفرق أنصاره، وبعد هذه القصة جاء الوعظ بحقارة الدنيا، فقال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف].

---

(١) تفسير السعدي ٤٧٥.
(٢) ينظر: تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٤.
(٣) التسهيل ٢/ ١٣٥.

فبيَّن حال الدنيا وزوال ما فيها ومصير ما فيها من النعيم إلى الهلاك، ثم بيَّن أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا في عرف الناس، وهي سريعة الزوال، فلا يحسن بالعاقل أن يُقدم الفاني على الباقي.

المثال الثالث: قصة موسى عليه السلام مع الخضر حيث ظن أنه أعلم أهل الأرض، فأوحى الله إليه أن لي عبداً بمجمع البحرين، هو أعلم منك، فرحل للقائه، والتعلم منه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾ [الكهف]، فلم يصبر على ما رأى من مواقف مع الخضر، وفيه نهاية القصة قال الله تعالى على لسان الخضر: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف]، وفيها: أنه لا بد للعلم من التواضع والصبر.

المثال الرابع: قصة ذي القرنين الذي كان ملكاً عادلاً عالماً بلغ مغرب الشمس ومشرقها، حتى وصل قوماً خائفين من يأجوج ومأجوج فأعانهم على بناء سدٍّ يمنعهم ويحصنهم، وخُتمت القصة بقوله جل وعلا عن ذي القرنين: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف].

ـ ثم خُتِمت القصص بالمواعظ إلى نهاية السورة، فقال تعالى: ﴿...وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾، إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف: ٩٩ ـ ١٠٦] إلى آخر آية في السورة يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف].

بيّن تعالى في نهاية هذه السورة ونهاية القصص الوارد فيها أن النار تبرز للكافرين يوم القيامة ليروا سوء عاقبتهم، ولا يُقام لهم وزن ولا قدر، وأن أعمالهم قد حبطت وضاعت بسبب كفرهم.

قال الطبري: «يقول تعالى: وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين الذين كانوا

لا ينظرون في آيات الله، فيتفكَّرون فيها ولا يتأمَّلون حججه، فيعتبرون بها، فيتذكرون وينيبون إلى توحيد الله، وينقادون لأمره ونهيه، وكانوا لا يطيقون أن يسمعوا ذكر الله الذي ذكَّرهم به، وبيانه الذي بيَّنه لهم في آي كتابه، بخذلان الله إياهم، وغلبة الشقاء عليهم، وشُغلهم بالكفر بالله وطاعة الشيطان، فيتعظون به، ويتدبَّرون، فيعرفون الهدى من الضلالة، والكفر من الإيمان»[(١)].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبراً عما يفعله بالكفار يوم القيامة: أنه يعرض عليهم جهنم؛ أي: يبرزها لهم ويظهرها، ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها، ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم»[(٢)].

وفي الآية الأخيرة الحث على العمل الصالح، وعدم الشرك بالله.

قال البيضاوي عنها: «والآية جامعة لخلاصتي العلم والعمل، وهما التوحيد والإخلاص في الطاعة»[(٣)].

ومن الأمثلة على تعقيب القصص بالمواعظ:

القصص الواردة في سورة الشعراء، فبعد كل قصة يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الشعراء].

قال الطبري: «وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ يقول تعالى ذكره: إن فيما فعلت بفرعون ومن معه ـ تغريقي إياهم في البحر إذ كذبوا رسولي موسى، وخالفوا أمري بعد الإعذار إليهم، والإنذار ـ لدلالة بينة يا محمد لقومك من قريش على أن ذلك سُنَّتي فيمن سلك سبيلهم من تكذيب رسلي، وعظة لهم وعبرة إن ادَّكروا واعتبروا أن يفعلوا مثل فعلهم»[(٤)].

ويقول الطبري في نهاية قصة عاد في تفسير قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾ [الشعراء]: «يقول تعالى ذكره: فكذّبت عاد رسول ربهم هوداً، والهاء في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ من ذكر هود ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ يقول: فأهلكنا عاداً بتكذيبهم رسولنا،

(١) تفسير الطبري ١٨/ ١٢٣.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٠١.
(٣) تفسير البيضاوي ٣/ ٥٢٨.
(٤) تفسير الطبري ١٩/ ٣٦٠.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ يقول تعالى ذكره: إن في إهلاكنا عاداً بتكذيبها رسولها، لعبرة وموعظة لقومك يا محمد، المكذّبين فيما أتيتهم به من عند ربك.

يقول: وما كان أكثر من أهلكنا بالذين يؤمنون في سابق علم الله.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامه من أعدائه، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين به»[(١)].

وقال الرزاي: «أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ فالمعنى: أن الذي حدث في البحر آية عجيبة من الآيات العظام الدالة على قدرته؛ لأن أحداً من البشر لا يقدر عليه وعلى حكمته؛ من حيث وقع ما كان مصلحة في الدين والدنيا، وعلى صدق موسى عليه السلام؛ من حيث كان معجزة له، وعلى اعتبار المعتبرين به أبداً، فيصير تحذيراً من الإقدام على مخالفة أمر الله تعالى، وأمر رسوله، ويكون فيه اعتبار لمحمد ﷺ..».

إلى أن قال: «وأما قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ فتعلقه بما قبله أن القوم مع مشاهدة هذه الآية الباهرة كفروا، ثم إنه تعالى كان عزيزاً قادراً على أن يهلكهم، ثم إنه تعالى ما أهلكهم، بل أفاض عليهم أنواع رحمته، فدل ذلك على كمال رحمته وسعة جوده وفضله»[(٢)].

وقال السعدي: «ومن الأدلة العقلية على ذلك ما شاهده العباد بأبصارهم من قديم الزمان وحديثه، من الإكرام لأهل التوحيد، والإهانة والعقوبة لأهل الشرك، وما ذاك إلا لأن التوحيد جعله الله موصلاً إلى كل خير، دافعاً لكل شر ديني ودنيوي، وجعل الشرك به والكفر سبباً للعقوبات الدينية والدنيوية، ولهذا إذا ذكر تعالى قصص الرسل مع أمم المطيعين والعاصين، وأخبر عن عقوبات العاصين ونجاة الرسل ومن تبعهم، قال عقب كل قصة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾؛ أي: لعبرة يعتبر بها المعتبرون فيعلمون أن توحيده هو الموجب للنجاة، وتركه هو الموجب للهلاك، فهذه من الأدلة الكبار العقلية النقلية الدالة على هذا الأصل العظيم، وقد أكثر الله منها في كتابه وصرفها ونوعها ليحيى

(١) تفسير الطبري ١٩/ ٣٧٩.
(٢) تفسير الرازي ٢٤/ ١٢٢، وينظر: تفسير ابن كثير ٦/ ١٣٦، ١٤٥.

من حي عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة فله الحمد والشكر والثناء»[١].

ـ ثم بعد ذِكْرِ قصص الأنبياء جاءت التسلية للرسول ﷺ، والوعد له بالفوز والغلبة، والموعظة والإنذار للمشركين، حتى لا يهلكوا كما أهلك المكذبون السابقون، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الشعراء]، إلى قوله: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾ [الشعراء].

قال البغوي: «﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ كثيرة في الدنيا؛ يعني: كفار مكة، ولم نهلكهم، ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾؛ يعني: العذاب، ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾، به في تلك السنين، والمعنى: أنهم وإن طال تمتعهم بنعيم الدنيا فإذا أتاهم العذاب لم يغن عنهم طول التمتع شيئاً، ويكون كأنهم لم يكونوا في نعيم قط»[٢].

ـ ثم ذكر تعالى أربع مواعظ للنبي ﷺ في قوله جل وعلا: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ [الشعراء].

ففي هذه الآيات أربع وصايا للرسول ﷺ:

الأولى: توحيد الله وعدم الإشراك به، ويدخل فيه من تبعه.

الثانية: إنذار عشيرته من عذاب الله.

الثالثة: لين الجانب والرفق بالأتباع.

الرابعة: التوكل على الله تعالى، وتفويض جميع الأمور إليه.

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَلَا تَدْعُ﴾ يا محمد ﴿مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾؛ أي: لا تعبد معه معبوداً غيره ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ فينزل بك من العذاب ما نزل بهؤلاء الذين خالفوا أمرنا وعبدوا غيرنا»[٣].

---

(١) تفسير السعدي ١٢٤.
(٢) تفسير البغوي ٦/ ١٣٠.
(٣) تفسير الطبري ١٩/ ٤٠٤.

وقال ابن كثير: «يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له، ومخبراً أنّ مَنْ أشرك به عذبه، ثم قال تعالى آمراً لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه أن ينذر عشيرته الأقربين؛ أي: الأدنين إليه، وأنه لا يُخَلِّص أحداً منهم إلا إيمانهُ بربه ﷻ، وأمره أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين، ومن عصاه من خلق الله كائناً مَنْ كان فليتبرأ منه؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾، وهذه النِّذارة الخاصة لا تنافي العامة، بل هي فرد من أجزائها»[(١)].

وقال السعدي: «ينهى تعالى رسوله أصلاً وأمته أسوة له في ذلك، عن دعاء غير الله، من جميع المخلوقين، وأن ذلك موجب للعذاب الدائم، والعقاب السرمدي، ولمَّا أمره بما فيه كمال نفسه، أمره بتكميل غيره فقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾، وهذا لا ينافي أمره بإنذار جميع الناس، فيكون هذا خصوصاً دالاً على التأكيد، وزيادة الحق، فامتثل ﷺ، هذا الأمر الإلٰهي، فاهتدى من اهتدى، وأعرض من أعرض.

﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ بلين جانبك، ولطف خطابك لهم، وتوددك، وتحببك إليهم، وحسن خلقك والإحسان التام بهم.

وأعظم مساعد للعبد على القيام بما أُمر به، الاعتماد على ربه، والاستعانة بمولاه على توفيقه للقيام بالمأمور، فلذلك أمر الله تعالى بالتوكل عليه فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾، ثم نبهه على الاستعانة باستحضار قرب الله، والنزول في منزل الإحسان فقال: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾»[(٢)].

وبعد هذا؛ فقصص القرآن تحقق غايات كثيرة من أهمها:

١ ـ الموعظة والاعتبار، وأكثر ما جاء في قصص الظالمين ونهاياتهم، والمستكبرين ومآلاتهم؛ للتحذير من سلوك مسلكهم؛ كقصة: قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وقوم شعيب، وفرعون، والنمرود بن كنعان، وبلعام، وصاحب الجنتين، وغيرها، كما قال تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف].

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/١٦٦.

(٢) تفسير السعدي ٥٩٨، ٥٩٩ بتصرف.

ويأتي تعقيب قصص الهالكين بعدل الله تعالى، كما قال تعالى بعد سياق قصص أقوام الأنبياء مجتمعة: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت].

٢ ـ مجيء القصص مُصَدِّقة لأنباء المواعظ كما قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر]، ثم جاءت بعدها القصص التي تدل على الرحمة، والتي تدل على العذاب.

فعادة القرآن: الموعظة والنصيحة من خلال القصة أو بعدها؛ لأن القصة لها أثر كبير في نفس السامع، يقوده إلى سرعة القبول والاستجابة للواعظ، كما قال تعالى في ختام قصة يوسف عليه السلام: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف]، وقال تعالى بعد قصة غزوة بدر: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران]، وقال تعالى بعد قصة حشر بني النضير: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر].

والقصة من أفضل وسائل تقرير الأمور المهمة.

قال الزرقاني: «وتارة يذكر العقيدة مرسلة، وأخرى يذكرها مدللة، وتارة يشفعها بدليل واحد، وأخرى بجملة أدلة، وتارة يضرب لها الأمثال، وأخرى يسوق فيها القصص، وتارة يقرنها بالوعد وأخرى بالوعيد»(١).

فهذه المواعظ والعبر التي تأتي قبل القصة وأثناءها وبعدها تدل على الغرض الأساسي من سياقها، مع ما فيها من أغراض وأهداف لا حصر لها، والله تعالى أعلم.

(١) مناهل العرفان ٢/ ٢٦٢.

المبحث الثاني

التنويع في عرض القصص

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول: الاقتصار في سوق القصص على المقصود.**
- **المطلب الثاني: الطول والقصر في القصة.**
- **المطلب الثالث: تكرار القصة.**

المطلب الأول

الاقتصار في سوق القصص على المقصود

قصص القرآن أبلغ القصص، والقصص أسلوب بياني يمثل جزءاً كبيراً من كتاب الله تعالى، مما يدل على أهميتها، والحديث عنها لا يجمعُه فصل ولا كتاب ولا رسالة.

قال ابن قتيبة: «فأراد الله، بلطفه ورحمته، أن يشهر هذه القصص في أطراف الأرض ويلقيها في كل سمع، ويثبتها في كل قلب، ويزيد الحاضرين في الإفهام والتحذير»(١).

قال الفيروزآبادي بعد ذكر الخلاف في عدّ الآي: «قلت: ومن هذه الجملة أَلف آية وستمائة آية في قصص الأَنبياء، وأَلف ومائتان في شرائع الإيمان، وأَلف وعشرون في التوحيد والصّفات، وألف في ترتيب الولايات، وأَربع مئة في الرُّقية وتعويذ الآفات، وأربعمائة في أنواع المعاملات، ومئة في عذر جُرْم العُصات، ومائة في ضمان أَرزاق البرّيات، وسبعون في جهاد

(١) تأويل مشكل القرآن ١٤٩.

الغزات، وخمسون فيما يتعلق بقصد مكّة وعرفات، والباقي في أحكام النكاح، وطلاق المنكوحات»[١].

وقد خُدمت قصص القرآن بكتابات كثير من العلماء.

ومما اختص به قصص القرآن: أنه رباني وواقعي، ودقيق وشامل.

فهو مرجع الباحثين في هذا الموضوع.

ومن عادات القرآن في قصصه الاقتصار في سوق القصص على المقصود بذكر الأجزاء التي تخدم الهدف، وطيّ الفصول التي لا تخدم الغرض الأساسي من القصة.

قال ابن عطية: «وجلبت هذه القصص بغاية الاختصار في اللفظ، وقصدت استيفاء المعاني التي تخص الآية»[٢].

فتأتي قصص القرآن وافية بالمقصود، من غير إسهاب ولا إملال.

قال السيوطي: «من الاختزال: حذف جمل كثيرة نحو: ﴿...فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٥ ـ ٤٦]؛ أي: فأرسلون إلى يوسف لأستعبره عن الرؤيا ففعلوا، فأتاه فقال له: يا يوسف»[٣].

فلم يذكر ذلك التفصيل، لأنه مفهوم ضمناً، وعادة القرآن عدم ذكر ما لا حاجة إليه.

ومن الأمثلة على ذلك:

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يوسف]، ثم ينتقل السياق وقد حضروا عند أبيهم مباشرة: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾﴾ [يوسف].

فلم يذكر ما اتفقوا عليه قبل ذهابهم لأبيهم؛ لأن الآيات التي بعدها أشارت أنهم عزموا على الرأي الذي أشار به أخوهم، ودخلوا بقولهم في

---

(١) بصائر ذوي التمييز ١/ ٥٦٠.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٣٦٩.
(٣) الإتقان ٢/ ١٣٩.

مرحلة التنفيذ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٥].

وابتدأت قصة يوسف عليه السلام من الرؤيا في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [يوسف].

فلم يذكر ولادته ونشأته، وتربيته، وحاله مع أبيه، وحاله مع إخوانه، وغير ذلك، بل ابتدأت بالمهم من القصة.

ـ **وكذلك قصص الأنبياء: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب** عليهم السلام، فلم تسرد بداية حياتهم، كما جاء في قصة موسى وعيسى عليهما السلام، حيث كان في قصة ولادتهما هدف وغاية.

وقصة آدم عليه السلام:

فلم يأت في القرآن وصف نزوله من الجنة إلى الأرض وحياته فيها بل كان الاقتصار على قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه].

فلم تشر الآية إلى مكان النزول، وكيف عاش وسكن؟.

فهذه مما يُفكِّر فيه القارئ، ولكنها ـ والله أعلم ـ أُغفلت لكي لا تكون سبباً لإبعاده عن المقصود من القصة.

وقصة أصحاب الكهف:

فلم يذكر القرآن ماذا فُعل بهم بعد العثور عليهم، بل اقتصر على ذكر اختلاف القوم في شأنهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف].

فالله أعلم ماذا عمل بهم، وكيف كانت حال قومهم من بعدهم.

ولم تُذكر في قصة أصحاب الكهف التفاصيل التي لا حاجة لها، بل بيَّن

تعالى أن المراء في أمر لا فائدة فيه لا حاجة إليه، بقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الكهف]، فالفائدة المرجوة ظاهرة في أفعالهم وثباتهم على الدين، وفرارهم بدينهم خوفاً عليه.

قال الشاطبي: «كلُّ حكايةٍ وقعتْ في القرآن، فلا يخلو أن يقع قبلها أو بعدها ـ وهو الأكثر ـ رَدٌّ لها أو لا، فإنْ وَقَعَ رَدٌّ؛ فلا إشكال في بطلان ذلك المحكي وكذبه، وإنْ لم يَقَع معها رَدٌّ؛ فذلك دليلُ صحةِ المحكي وصِدْقِه»، إلى أن قال: «ولاطراد هذا الأصل: استدل على أن أصحاب الكهف سبعة وثامنهم كلبهم بأن الله تعالى لما حكى من قولهم أنهم: ﴿ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، وأنهم: ﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، أعقب ذلك بقوله: ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ﴾؛ أي: ليس لهم دليل ولا علم غير اتباع الظن، ورجم الظنون لا يغني من الحق شيئاً، ولما حكى قولهم: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ﴾؛ لم يتبعه بإبطال بل قال: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬﴾ [الكهف: ٢٢]؛ دل المساق على صحته دون القولين الأولين»[(١)].

ويبقى أن هذا القول لمعرفة طريقة استنباطهم لترجيح القول، وإلا فلا ثمرة من معرفة عددهم، ولذلك لم يذكر العدد صراحة، وعالجت القصة الأهم وهو أدب المِرَاء، وردُّ العلم إلى الله.

قال ابن تيمية: «وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني؛ . . كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعدتهم،

(١) الموافقات ٤/١٥٨ ـ ١٦١، وكذلك قال ابن عثيمين، وقال أيضاً: «نظيره قول الله تبارك وتعالى في المشركين إذا فعلوا فاحشة: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ هذا واحد، ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ﴾ هذا اثنان، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: ٢٨]، فأبطل قولهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ﴾، وسكت عن الأول؛ فدل على أن الأول: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ (صحيح). تفسير سورة الكهف ٤٢.

وعصا موسي من أي الشجر كانت، وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله في القرآن، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم، ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز، كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الكهف].

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام، وتعليم ما ينبغي في مثل هذا؛ فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضعف القولين الأولين، وسكت عن الثالث، فدل على صحته؛ إذ لو كان باطلاً لرده كما ردهما، ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فيقال في مثل هذا: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه؛ فلهذا قال: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أي: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك؛ فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب»[1].

والشاهد أن القصة في سياقها أبرزت الأحداث المهمة دون النظر إلى الأشخاص، فمن هم؟ وأين مكانهم؟ وما أسماؤهم؟، ونحو ذلك مما أُغفل من القصة، إبقاء على المقصود.

فلو فصلت القصة في هذه الأمور لانصرف فكر القارئ إلى تتبع أحداث ليست هي الغاية، وغفل عن العبرة والعظة التي سيقت القصة من أجلها، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن

(١) مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٦٧.

شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [القصص].

فقد طُوِيَ من النص بين الآيتين ثمان أو عشر سنوات؛ لأن الله تعالى قال على لسان موسى عليه السلام: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص: ٢٨].

وموسى قضى أكثر الأجلين، كما أخبر بذلك حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنه، فعن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: «سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب، فأسأله، فقدمت فسألت ابن عباس فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله ﷺ إذا قال فعل»[1].

ففي كل موضع تَرِد فيه القصة يكون التركيز على ما يخدم هدف القصة وغرضها الأساسي.

وقصة قوم يونس عليه السلام:

حيث قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس]، وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصَّافات].

فلم يقص تعالى علينا نبأهم وما حصل لهم خلال هذا المتاع، فهو غيب في علم الله تعالى، وهو العليم الحكيم.

---

(١) أخرجه البخاري ٣/ ٢٣٦ (٢٦٨٤)، كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد، وهو في حكم المرفوع؛ لأن ابن عباس كان لا يعتمد على أهل الكتاب، ينظر: فتح الباري ٥/ ٢٩١، وقد صرح برفعه عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ سأل جبريل: «**أي الأجلين قضى موسى؟**» قال: «أتمهما» أخرجه الحاكم المستدرك ٢/ ٤٤٢، (٣٥٣٢)، وقال: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه.

ومن خلال قصته كذلك أدلة على أن فيها ما طوي ذكره لعدم الحاجة إليه، والله أعلم.

قال أبو حيان: «ففي قصة يونس عليه السلام هنا جمل محذوفة مقدرة قبل ذكر فراره إلى الفلك، كما في قصته في سورة الأنبياء في قوله: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ هو ما بعد هذا، وقوله: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، جمل محذوفة أيضاً»(١).

وقال السعدي: «وهذه الأمة العظيمة، الذين آمنوا بدعوة يونس، من أكبر فضائله، ولكنه عليه الصلاة والسلام ذهب مغاضباً، وأبق عن ربه لذنب من الذنوب، التي لم يذكرها الله لنا في كتابه، ولا حاجة لنا إلى تعيينها»(٢).

ومما يدل على اقتصار قصص القرآن على المقصود، عدم اتحاد مكان البداية في ذكر القصص، ولا مواطن الاستشهاد، بل يُراعَى في ذلك ما يناسب السياق، ويخدم الغرض المسُوقةَ من أجله.

فأحياناً تُذكر القصة من أول أجزائها؛ لما في هذا الحدث من عبر وعظات.

ـ **كما في قصة آدم** عليه السلام، جاء الحديث عن بداية خلقه؛ لما فيه من إظهار قدرة الله تعالى، وكمال علمه، ونعمته على آدم وذريته، والإشارة إلى ما حصل معه من إبليس، فكل حدث فيه من الدروس والعبر الكثير.

ـ **وكذا قصة مولد موسى** عليه السلام، وما فيها من الآيات، ونجاته من ذبح فرعون للذكور، وتربيته في بيت فرعون، وما هيأه الله له بعنايته وتوفيقه.

ـ **وكذا قصة مولد عيسى** عليه السلام، وقصة أمه قبله؛ لأن فيه آية كبرى، ودليلاً على قدرة الخالق الكاملة.

ـ **وكذلك الإشارة إلى مولد إسماعيل وإسحاق** عليهما السلام؛ لأن في هذا المولد عبرة، فإسماعيل رزقه الله إبراهيم عليه السلام على كبر، وأسكنه بواد غير ذي

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٥٩.
(٢) تفسير السعدي ٥٢٩.

زرع، وإسحاق بُشر به إبراهيم وامرأته عجوز وقد بلغ من الكبر عتياً.

ـ وكذلك أُشير في القرآن لمولد يحيى لزكريا؛ لأن فيه آية على قدرة الله، حيث رزقه الله بعد أن وهن العظم منه واشتعل الرأس شيباً.

وأحياناً لا تُذكَر أول القصة بل يُشار إلى أجزاء متوسطة منها؛ لأنه محلّ الهدف.

ـ كما في قصة إبراهيم عليه السلام حيث بدأت قصته من دعوته لقومه، ومحاولة إقناع أبيه وقومه إلى عبادة الإلٰه الواحد، وعدم استجابتهم، ومحاولتهم إحراقه، فينجيه الله منهم، قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء].

ـ وكذا قصة يوسف عليه السلام بدأت من الرؤيا وعرضها على أبيه ثم تسير القصة بعد هذه الرؤيا ليأتي تأويلها في نهاية القصة.

وأحياناً تأتي الإشارة إلى حدث متأخر من القصة.

ـ كما في قصص أكثر الأنبياء؛ كنوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب عليهم السلام، فبداية قصصهم عند إرسالهم إلى أقوامهم، وهي أهم مدة في القصة، والعبرة والأثر موجود فيها.

هذا كله من ناحية الابتداء، فلا يكون إلا في موطنِ العظة والعبرة، والحدثِ المؤثر في القصة؛ الموافق لأهداف القرآن وغاياته، والله تعالى أعلم.

وبعد التأمل في سياقات القصص، ودقتها، تبين لي ما يأتي:

١ ـ أن القصص القرآني يركز على أحداث ومشاهد القصة التي تكون محلاً للفائدة، وخصوصاً ما فيه عظة وعبرة، دون ما خلا منها.

٢ ـ أن غالب ما يطوى من القصة معلوم منها بالضرورة إجمالاً؛ لوجود الثغرة الزمنية بين الأحداث، ولكن الله أعلم بتفاصيله.

٣ ـ ذكر المدة الزمنية للقصة، واختيار جزء منها، دليل على أن أحداثاً كثيرة قد طويت في علم الغيب، فلم يُذكر إلا محل الفائدة، كما في قوله

تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [العنكبوت]، جاء التصريح هنا بالمدة الزمنية التي لم تذكر كل أحداثها وتفاصيلها الطويلة.

٤ ـ في مواطن كثيرة من القصص يُستدل على المتروك في موضع من المواضع الأخرى في السياقات المختلفة.

قال أبو حيان: «وبمجموع القصص يتبين ما حذف في كل قصة منها»[(١)].

٥ ـ ومن خصائص قصص القرآن أن لكل حذف أو اقتصار دليلاً عليه، وكذلك يكون له سرٌّ بلاغي في كل موضع، والله تعالى أعلم.

المطلب الثاني

الطول والقصر في القصة

المتأمل في كتاب الله تعالى يجد أسلوب القصص في أعلى صوَرِه، فقد حققت القصص أهدافها، مع مراعاة الدقة في ألفاظها.

فعادة القرآن الإجمال تارة في القصة، والتفصيل تارة أخرى، وهذا أسلوب جميل وله موقع في النفوس كبير، ومن خلاله تتحدد الأمور المهمة في القصة، فسياق القصة المجمل يكون كالأساس لها، والتفصيل للإيضاح حسب المقصود فيتم البيان.

قال السعدي: «وهذه قاعدة نافعة، فإن هذا الأسلوب العجيب يصير له موقع كبير، وتتقرر فيه المطالب المهمة، وذلك أن القصة إذا أُجملت بكلام يكون لها كالأصل والقاعدة، ثم يقع التفصيل لذلك الإجمال، يحصل به الإيضاح والبيان التام الكامل الذي يقع ما يقاربه لو فصلت القصة الطويلة من دون تقدم صورة إجمالية لها، فإن الصورة تشوق إلى التفصيل»[(٢)].

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٥٩.

(٢) القواعد الحسان ١٢٨.

ومن تأمل في قصص القرآن من حيث الطول والقصر، وجد أنها على أنواع(١):

❐ الأول: قصص قصيرة:

ففي القرآن قصص جاءت الإشارة إليها بشكل سريع، أو الاقتصار على أحد أجزائها.

ـ كما في قصة إلياس عليه السلام

في سورة الصافات، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الصَّافات]، إلى قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الصَّافات].

ـ وقصة يونس عليه السلام.

جاءت الإشارة لها في سورة يونس بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس]، وفي سورة الأنبياء بقوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء]، وفي سورة الصافات بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الصَّافات]، إلى قوله: ﴿فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصَّافات].

فقصة يونس اقتصرت على خروجه وابتلاع الحوت له ثم نبذه بالعراء، ورسالته لقومه وإيمانهم به.

ـ وقصة أيوب عليه السلام.

فقد جاءت الإشارة إليها في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء]، وفي قوله

(١) طول القصة وقصرها أمر نسبي من خلال النظر إلى غيرها من قصص القرآن.

تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [ص].

فقصة أيوب عليه السلام تُرَكِّز على مسِّ الضر له، ثم استغاثته بالله وشفائه ورد أهله إليه.

ـ وقصة أصحاب الأخدود.

جاءت الإشارة لها في سورة البروج بقوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾﴾ [البروج] إلى قوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج].

ـ وقصة الذي انسلخ من آيات الله.

كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف].

❐ الثاني: قصص متوسطة:

وفي القرآن من القصص ما أُشير إلى جزء من القصة أكثر من سابقه، وأقل من لاحقه، فتعتبر متوسطة نسبياً.

ـ كما في قصة هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام.

مع أنها تكررت في سورة الأعراف، وسورة هود، وسورة الشعراء، وغيرها إلا أنها ليست طويلة؛ فتعرضُ القصة للرسالة والحوار مع قومهم، وتكذيب هؤلاء القوم، ثم إهلاكهم جميعاً.

ـ وقصة أصحاب الكهف، وقصة صاحب الجنتين، وقصة ذي القرنين كما في سورة الكهف.

وقصة أصحاب الجنة في سورة القلم؛ كلها اقتصرت على القدر الذي تحصل به العظة والعبرة.

❐ الثالث: قصص طويلة:

وهذا النوع ليس بكثير في القرآن لأن عادة القرآن الاختصار والاقتصار على المفيد، وقلة الألفاظ مع كثرة المعاني، ولذلك يبحث العلماء الحكمة في الطول إن وجد، وأوضح مثال لها قصة يوسف عليه السلام، فقد جاءت مفصلة من أول سورة يوسف إلى آخرها.

فهي أطول قصة في القرآن جاءت متسلسلة الأجزاء، ومرتبة ترتيباً زمنياً، كما وقعت.

ومن أسرار ذلك ـ والله أعلم ـ طلبُ الصحابة رضي الله عنهم[١].

قال الواحدي بإسناده: «عن سعد بن أبي وقاص في قوله عز وجل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ قال: أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت، فأنزل الله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ الآية، فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو حدثتنا، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزُّمر: ٢٣] قال: كل ذلك تؤمرون بالقرآن»[٢].

قال السيوطي: «قلت: وظهر لي جواب، وهو أن سورة يوسف نزلت بسبب طلب الصحابة أن يقص عليهم، كما رواه الحاكم في مستدركه[٣] فنزلت مبسوطة تامة؛ ليحصل لهم مقصود القصص، من استيعاب القصة، وترويح النفس بها، والإحاطة بطرفيها»[٤].

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٦٦، ولا يلزم من ذكره حصر العلة به.

(٢) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ٢٥٩، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٣٧٦ (٣٣١٩)، وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وحسنه ابن حجر في المطالب العالية ١٤/ ٧٣٨ (٣٦٣٤)، وحسنه ابن تيمية في مجموع الفتاوى ١٧/ ٤٠، مرفوعاً عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ويشهد له ما أخرجه الطبري في التفسير ١٥/ ٥٥٢، (١٨٧٧٥)، وينظر: الدر المنثور ٨/ ١٧٩.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) الإتقان ٢/ ١٤٩.

❐ الرابع: قصص جاءت في موضع مطولة وفي موضع آخر مختصرة:

ومن قصص القرآن ما يأتي أحياناً مطولاً، وأخرى مختصراً، وفي بعض المواضع إشارةٌ سريعة لمراعاة ما يناسب السياق.

ـ كما في قصة موسى عليه السلام.

جاءت مطولة في سورة الأعراف، وسورة طه، وسورة الشعراء، وسورة القصص، وسورة غافر.

وجاءت أقل من ذلك في سورة يونس، وسورة النمل.

وجاءت مختصرة في سورة هود، وسورة الإسراء، وسورة الذاريات، وسورة النازعات.

ولما كانت هذه القصة هي أكثر قصص القرآن تكراراً، بعَرضٍ مطول أحياناً ومختصر في أحيان أخرى، فسأُشير إلى أهم المراحل التي مرت بها من خلال القرآن مراعياً ترتيب نزول السور[1]:

١ ـ في سورة الأعلى إشارة لموسى بقوله تعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى]، وهي أول سورة ذُكر فيها موسى من حيث النزول.

٢ ـ ثم في سورة الفجر إشارة إلى فرعون بدون ذكر موسى، في قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر].

٣ ـ ثم في سورة الأعراف بدأ التفصيل الأول للقصة بعد قصص الأنبياء نوح، وهود، ولوط، وشعيب، عليهم السلام حيث اتحدت في قصصهم طريقة الدعوة ومقابلتهم بالتكذيب، والنهاية المؤلمة للمجرمين.

وقد بدأت القصة برسالة موسى وهارون إلى فرعون وملئه، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأعراف]، ثم أشارت لمعجزة العصا

(١) ترتيب النزول حسب ما نقله السيوطي في الإتقان ١/ ٥٣.

واليد، وجمع السحرة، وحرصه على الغلبة، وانتصار الحق، وهزيمتهم، وسجود السحرة، وتعذيب فرعون لبني إسرائيل بعد ذلك، وإرسال الطوفان الجراد والقُمّل والضفادع والدم على فرعون وقومه ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف] واستغاثتهم بموسى، وكف الأذى عنهم، وعودتهم لتعذيب بني إسرائيل، ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف] ثم خروج هؤلاء من مصر، وبعد الخروج طلبوا من موسى أن يتخذ لهم إلهاً كما للقوم الذين مروا بهم آلهة، وتذكيره لهم بربهم، ثم ميعاد موسى مع ربه بعد ثلاثين ليلة، وزيدت إلى أربعين، وطلبه رؤية ربه، ودك الجبل وصعق موسى وإفاقته، وعودته إلى قومه حيث وجدهم قد اتخذوا لهم عجلاً إلهاً، وغضبه على أخيه، ثم اختيار سبعين رجلاً منهم لميقات ربه، وغشيتهم بالجبل لما طلبوا رؤية الله جهرة وإفاقتهم، ثم دعائهم بطلب الرحمة، فالرد عليهم بأن الرحمة قد كتبت للمؤمنين الذي يتبعون النبي الأمي.

٤ ـ ثم في سورة الفرقان إشارة للرسالة، والتكذيب، وإهلاك المكذبين، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾ [الفرقان].

٥ ـ ثم في سورة طه يأتي تفصيل آخر، ابتداء من موضع أسبق من الرسالة التي ذكرت في سورة الأعراف، وهو رؤية موسى للنار من جانب الطور، في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ [طه].

وبعد أن يكلّف الذهاب إلى فرعون، يحاور ربه ليُرسل معه هارون، يشدّ أزره ويكون وزيراً له، فيذكّره الله بنعمته عليه في مولده، ورده إلى أمه، ثم تسير القصة كما سارت في الأعراف مع ترك آيات الجراد والقمل والضفادع

والدم، وعهد فرعون لبني إسرائيل ونكثه، لكن زادت أن السامري هو الذي صنع العجل، وتفصيل قصة صنعه.

٦ ـ ثم في سورة الشعراء يقول تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الشعراء]، فابتدأت القصة من إرساله إلى فرعون، ثم مثل المراحل التي مرت في سورة الأعراف، ولكنها تزيد: ذِكْر موسى أنه قتل رجلاً منهم فهو يخشى أن يؤخذ به، وتذكير فرعون له بأنه قد رُبي فيهم وليداً، وفعل هذه الفعلة ومضى، وذِكْر انفلاق البحر كالطود العظيم.

٧ ـ ثم في سورة النمل ابتدأت القصة من رؤية موسى النار، وموقفه مع ربه، ثم التركيز على تكذيب فرعون وقومه، وبيان سوء عاقبتهم.

٨ ـ ثم في سورة القصص ابتدأت القصة من ولادته، ووضعه في التابوت، وإلقائه في البحر، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص]، ثم التقاط آل فرعون له، وتحريم المراضع عليه، وقول أمه لأخته قصي أثره، ومعرفتها بأمره، وإشارتها على آل فرعون بمرضع للطفل هي أمه، ثم لما كبر آتاه الله الحكم والعلم، ثم قتله للرجل، ومحاولته قتل آخر، وتهديده إياه بافشاء سر القتلة الأولى، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [القصص]، ونصح رجل له بالهرب وقد جاءه من أقصى المدينة يسعى، وخروجه إلى أرض مَدينَ، والتقائه ببنتي الشيخ الكبير، وسقيه لهما، وحض إحداهما أبيها على استئجاره، وزواجه بابنته حسب شرطه، ثم انفصاله عنه وذهابه بأهله، ثم رؤيته النار ـ التي بدأ منها القصة في سورة طه ـ، ثم تسير القصة كما سارت هناك، بزيادة تهكم فرعون في قوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٣٨]، وتنتهي بغرق فرعون في اليم، وسوء عاقبتهم في القيامة.

٩ ـ ثم في سورة الإسراء إشارة قصيرة لإغراق فرعون والتمكين لبني

إسرائيل، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء].

١٠ ـ ثم في سورة يونس بيان لعاقبة التكذيب، والإشارة إلى قصة السحرة، وتجاوز بني إسرائيل البحر، واتباع فرعون لهم وغرقهم، وزاد فيها: حال فرعون لما أدركه الغرق، في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس: ٩٠]، فجاء الرد عليه: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩١، ٩٢]، ولم ترد في غير هذه السورة.

١١ ـ ثم في سورة هود في أربع آيات إشارة إلى سوء عاقبة فرعون ومن تبعه، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾ [هود].

١٢ ـ ثم في سورة غافر جاء الحوار بين موسى وفرعون، ويزيد فيه قول فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ﴾ [غافر: ٢٦]، وكذلك زيادة قصة رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه، ويدافع عن موسى وينصحهم عليهم ألا يقتلوه، فقد يكون على صراط مستقيم، ولم يتكرر هذا كغيره من فصول القصة.

١٣ ـ ثم في سورة الزخرف إشارة مختصرة إلى إرسال موسى إلى فرعون، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الزُّخرف]، وأشار إلى استغاثتهم بموسى لكشف العذاب، ونكثهم الوعد، وفيها زيادة نداء فرعون: ﴿...أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزُّخرف]، وهذا لم يتكرر في القرآن.

١٤ ـ ثم في سورة الذاريات عرض قصير للقصة، في قوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الذاريات].

١٥ ـ ثم في سورة الكهف، قصة موسى مع الخضر، ولم تذكر في موضع آخر.

ثم في السور المدنية التطرق لقصة موسى، من جوانب مهمة.

١٦ ـ كما جاء في سورة البقرة، التفصيل في بعض مواقف موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، كتذكيرهم بنعمة الله عليهم ومقابلتها بالجحود، وكذلك إعطاؤهم المن والسلوى، ويزيد هنا: الإشارة إلى احتقارهم النعم وطلبهم أطعمة أخرى.

ثم الإشارة إلى طلبهم أن يروا الله جهرة من شدة عنتهم وتكبرهم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [البقرة: ٥٥].

ثم يأتي الحديث عن أمرهم بذبح البقرة، وترددهم، وأسئلتهم عن صفاتها، ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [البقرة: ٧١].

١٧ ـ وكذلك في سورة النساء الإشارة إلى طلبهم أن يروا الله جهرة، لبيان شدة عنادهم، في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾ [النساء].

١٨ ـ ثم في سورة المائدة الإشارة إلى تذكير موسى بالنعم على بني إسرائيل، وأمرهم بدخول الأرض المقدسة، قال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [المائدة]، فأجابوه: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المائدة].. إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة].

ثم يأتي بعد ذلك تركهم في التيه، قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة]، ولا تأتي الإشارة بعد ذلك إلا إلى تفرق بني إسرائيل وعدائهم للمسلمين، قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [المائدة: ٤١].

فذكر هذه التفصيلات في قصة موسى من أولها إلى تفرُّق بني إسرائيل؛ لأن في كل موطن من مواطن القصة هدفاً من أهداف القرآن.

وبعد هذا العرض الموجز يتبين لي:

١ ـ أن في السور المكية أحداثُ قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وهذا يناسب دعوة الكفار من قريش وغيرهم في مكة حيث التعامل الأكثر حينها مع الكفار والمعارضين.

وفي السور المدنية مواقف بني إسرائيل الذين آمنوا بموسى عليه السلام ولكنهم آذوه أو اعترضوا على أوامره، أو ترددوا في قبولها، ونحو ذلك، وهذا يناسب تأسيسَ الدولة، وقيادة الأمة، وتوجيه الصحابة، ومن دخل في دين الله؛ حيث كثر الأتباع لنبينا محمد ﷺ.

٢ ـ أن أحداث القصة كثيرة، وأن التكرار قليل جداً في أحداثها الأساسية، وإذا وقع جيء بشيء جديد، إذ الأكثر الإشارة اليسيرة إلى مواضعَ يقتضيها السياق، مرة من أول القصة وأخرى من وسطها، وتارة من آخرها، وقد تُعرَض كاملة، وقد تكون من هذا وهذا، كل ذلك حسب ما يخدم الهدف من إيرادها، وهذا من عظمة هذا القرآن وإعجازه في قصصه، كما هو معجز في بيانه.

ـ وعادة القرآن أيضاً الإجمال في القصة ثم التفصيل فيها، فالطول والقصر حسب ما يناسب السياق، ومقتضى الحال، وهذا مما يزيد القصة بياناً ووضوحاً.

- **كما في قوله تعالى في قصة آدم:** ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه]، ثم جاءت القصة مفصَّلة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾ [طه]، إلى قوله: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه].

- **وكذلك في قصة أصحاب الكهف،** قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾ [الكهف].

فهذه الجمل بينت القصة وهدفها إجمالاً، ثم كررت بأسلوب أكثر بسطاً فقال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف]، إلى آخر القصة، في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف].

- **ومن الأمثلة قصة موسى** عليه السلام، كما قال الله تعالى: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾﴾ [القصص]، إلى قوله: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص]، فهذا مجمل القصة، ثم أتى بالتفصيل بعده فقال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص]، إلى نهاية ما ذكر الله عنه، ونهاية فرعون وقومه بقوله تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص].

قال ابن كثير: «هذا إخبار عن قصة أصحاب الكهف والرقيم على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك»[(١)].

(١) تفسير ابن كثير ١٣٨/٥.

قال السعدي: «من قواعد التعليم التي أرشد الله إليها في كتابه، أن القصص المبسوطة يجملها في كلمات يسيرة ثم يبسطها»(١).

هذا؛ وقد جاءت الإشارة في كتاب الله تعالى أنه لا طريق للوصول إلى هذه القصص بتفاصيلها إلا بالوحي، لتَدُل على صدق القرآن وصدقِ من جاء به، كما قال تعالى بعد قصة مريم: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران]، وقوله تعالى بعد قصة نوح عليه السلام: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۛ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود]، وقوله تعالى بعد قصص الأنبياء: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾ [هود]، وقوله تعالى قبل قصة يوسف عليه السلام: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف]، وقوله تعالى بعد نهاية القصة: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف]، وقوله تعالى بعد قصة موسى عليه السلام: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [القصص].

قال السعدي: «وقرر ذلك بأنه يخبر بقصص الأنبياء السابقين مطولة على جميع الواقع، الذي لا يستريب فيه أحد، ثم يخبر تعالى: أنه ليس له طريق ولا وصول إلى هذا إلا بما آتاه الله من الوحي، كمثل قوله تعالى لما ذكر قصة موسى مطولة: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤]، ولما ذكر قصة يوسف وإخوته مطولة قال: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف: ١٠٢]»(٢).

وفي هذا الأسلوب القصصي في القرآن بيان الطريق الصحيح لتحقيق الأهداف منها، فليس المراد مجرد السرد التاريخي وعرض الأحداث فحسْب، كما قال تعالى: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٦]،

(١) القواعد الحسان ١٢٧.
(٢) القواعد الحسان ١٤.

وقال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف].

فالقرآن له رسالة، والقصص من وسائل إيصال هذه الرسالة، والله تعالى أعلم.

المطلب الثالث

تكرار القصة

من عادات القرآن تكرارُ ما يستحق التكرارُ من الأمور المهمة؛ ليجدَ سبيله إلى النفوس النافرة، والطباع العصية، ومن عادة القرآن في أسلوبه تكرار القصةِ وقرنها بالوعد والوعيد[(١)].

وقد أخذت القصص القسط الأكبر من بين موضوعات القرآن.

وتكرار قصص الأنبياء عادة بارزة في مواضع كثيرة من القرآن، ولحكم عظيمة.

قال مكي: «وقد كرر الله ﷻ قصص الأنبياء وأممها، في سور كثيرة بألفاظ مختلفة، ومعانٍ متقاربة»[(٢)].

وقال السيوطي: «والتكرير أبلغ من التأكيد، وهو من محاسن الفصاحة، ومن فوائده: التقرير، وقد قيل: الكلام إذا تكرر تقرر، وقد نبَّه سبحانه على السبب الذي لأجله كرر الأقاصيص والإنذار في القرآن بقوله: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾ [طه: ١١٣]»[(٣)].

ومن أهم الحِكَم في تكرار القصص:

نزول القرآن منجماً حيث تُراعى الأحوال والأزمان والأماكن، واكتمال

(١) ينظر: مناهل العرفان ٢/ ٢٦٢.
(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية ٤/ ٢٤٥٩.
(٣) الإتقان ١/ ١٤٤.

القصة شيئاً فشيئاً، وحصول الإعجاز بها، وتمكين العظة والعبرة في النفوس.

قال ابن قتيبة: «وأما تكرار الأنباء والقصص، فإنّ الله تبارك وتعالى أنزل القرآن نجوماً في ثلاث وعشرين سنة، بفرضٍ بعد فرض: تيسيراً منه على العباد، وتدريجاً لهم إلى كمال دينه، ووعظٍ بعد وعظ: تنبيهاً لهم من سِنَة الغفلة، وشحذاً لقلوبهم بمتجدّد الموعظة، وناسخ بعد منسوخ: استعباداً له واختباراً لبصائرهم، يقول الله ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾ [الفرقان]، الخطاب للنبي ﷺ، والمراد بالتثبيت: هو والمؤمنون»[(١)].

وقال مكي: «علة تكرار القصص في القرآن: أن القرآن نزل شيئاً بعد شيء نُجُوماً، في ثلاث وعشرين سنة، فكانت العرب ترد على النبي ﷺ، من كل أُفُق فيقرئهم المسلمون السورة من القرآن، فيذهبون بها إلى قومهم.

وكان يبعث إلى القبائل المتفرقة، بالسور المختلفة، فيبلغ إلى هؤلاء من القصص ما لم يبلغ إلى هؤلاء، فثنى الله القصص وكررها ليكون يبلغ إلى هؤلاء ما يبلغ إلى هؤلاء إشهاراً منه لهذه القصص ليتعظ بها من بلغته، ويعلم أنها دلالة على نبوة من أتى بها، ويعيها كل قلب، ويزداد الحاضرون السامعون لتكررها تَفَهُّماً»[(٢)].

واقتصر على هذا الجواب ابن الجوزي في قوله: «وإنما قيل له: ﴿مَّثَانِيَ﴾ [الزُّمر: ٢٣]؛ لأنه كررت فيه القصص والفرائض والحدود والثواب والعقاب.

فان قيل: ما الحكمة في تكرار القصص، والواحدة قد كانت تكفي؟

فالجواب: أن وفود العرب كانت ترد على رسول الله ﷺ فيقرئهم المسلمون شيئاً من القرآن فيكون ذلك كافياً لهم، وكان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة، فلو لم تكن الأنباء والقصص مثناة مكررة، لوقعت قصة موسى إلى قوم، وقصة عيسى إلى قوم، وقصة نوح إلى قوم، فأراد الله

(١) تأويل مشكل القرآن ١٤٨.
(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية ٤/ ٢٤٦٠، ٢٤٦١.

تعالى أن يشهر هذه القصص في أطراف الأرض ويلقيها إلى كل سمع»[(١)].

وذكر هذا ابن تيمية، وقال: «وإن كانت القصة المذكورة ذاتها واحدة فصفاتها متعددة، ففي كل جملة من الجمل معنى ليس في الجمل الأُخر»[(٢)].

وقال ابن جزي: «فإن قيل: ما الحكمة في تكرار قصص الأنبياء في القرآن؟ فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أنه ربما ذكر في سورة من أخبار الأنبياء ما لم يذكره في سورة أخرى؛ ففي كل واحدة منهما فائدة زائدة على الأخرى.

الثاني: أنه ذكرت أخبار الأنبياء في مواضع على طريقة الإطناب، وفي مواضع على طريقة الإيجاز؛ لتَظهر فصاحةُ القرآن في الطريقتين.

الثالث: أن أخبار الأنبياء قُصد بذكرها مقاصد فتعدد ذكرها بتعدد تلك المقاصد فمن المقاصد بها: إثبات نبوة الأنبياء المتقدمين بذكر ما جرى على أيديهم من المعجزات، وذكر إهلاك من كذبهم بأنواع من المهالك، ومنها: إثبات النبوة لمحمد ﷺ لإخباره بتلك الأخبار من غير تعلم من أحد»[(٣)].

والقصص المتكررة تأتي في كل موضع بصورة مختلفة، كما في قصة نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام، وقد اجتمع في هذه القصص من جهة المعنى:

١ ـ اتحاد الوظيفة في الدعوة إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء].

٢ ـ تشابه أحوال الأمم مع أنبيائها في الكفر والعناد، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤﴾ [سبأ].

٣ ـ تشابه العاقبة للمؤمنين، وللكافرين، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾ [يوسف].

---

(١) زاد المسير ٧/ ١٧٥.
(٢) ينظر: مجموع الفتاوى ١٩/ ١٦٨.
(٣) التسهيل ١/ ٩.

وفي قصة كل نبي كثيرٌ من الفوائد والعبر والعظات.

وإذا كررت قصة النبي الواحد، فالهدف يختلف من موضع لآخر، وإذا تغير الهدف روعي اللفظ دون إخلال بالمعنى، فيأتي الاختلاف في الطول والقصر، والاختلاف في الصياغة، والأحداث المتناولة، وطريقة عرضها، وكأنها قصة جديدة في كل موضع.

قال الباقلاني: «إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة وتؤدي معنى واحداً، من الأمر الصعب الذي تظهر به الفصاحة، وتتبين به البلاغة، وأعيد كثير من القصص في مواضع كثيرة مختلفة على ترتيبات متفاوتة»(١).

ومن أكثر القصص تكراراً في القرآن:

قصة موسى مع فرعون، فقد ذكرت في كثير من سور القرآن الكريم منها:

سورة البقرة، والمائدة، والأعراف، ويونس، وهود، وطه، والقصص، والشعراء، والنمل، والنازعات.

قال الزركشي: «ومن التكرار: تكرار القصص في القرآن؛ كقصة إبليس في السجود لآدم، وقصة موسى وغيره من الأنبياء، قال بعضهم: ذكر الله موسى في مائة وعشرين موضعاً من كتابه، قال ابن العربي في القواصم: ذكر الله قصة نوح في خمسة وعشرين آية، وقصة موسى في سبعين آية»(٢).

ولعل من أهم أسرار تكرار قصة موسى عليه السلام مع قومه:

١ ـ قربهم من كفار قريش زماناً ومكاناً.

٢ ـ التشابه الكبير في المواقف بين القوم ونبيهم.

قال ابن القيم: «ولهذا يذكر الله سبحانه وتعالى قصة موسى عليه السلام، ويعيدها ويبديها، ويسلي رسول الله ﷺ، ويقول رسول الله عندما يناله من أذى الناس: لقد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر(٣)، ولهذا قال النبي إنه كائن في أمتي ما

---

(١) إعجاز القرآن ٦١.
(٢) البرهان ٣/ ٢٥، الإتقان ٢/ ١٤٨.
(٣) الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «قسم رسول الله ﷺ قسماً فقال رجل: إنها لقسمة ما أريد بها وجه الله، قال: فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فغضب حتى رأيت =

كان في بني إسرائيل، حتى لو كان فيهم من أتى أمه علانية لكان في هذه الأمة من يفعله[١]، فتأمل هذا التناسب بين الرسولين والكتابين والشريعتين»[٢].

أظهَر الله تعالى في قصة موسى من خلال مواضع تكرارها بداية حياة موسى عليه السلام، إلى أن تآمر الملأ ليقتلوه، ثم خروجه إلى بلاد الشام، ومروره بمدين، ونزوله على شعيب، ومسيره بأهله إلى مصر، وإرساله إلى فرعون، وصراعه معه، وإسرائه بعباد الله إلى الشام، ثم المواقف معه من بني إسرائيل، إلى نهاية حياته.

وفي كل موقف أحداث كبيرة، ودروس وعبر، وفي كل موضع يُذكر من القصة ما يقتضيه السياق، ولذا لم تأت القصة على أسلوب ولفظ واحد، بل يأتي في موضع ما يُطوى في موضع آخر.

قال الزركشي: «وإنما كررها لفائدة خلت عنه في الموضع الآخر»[٣].

ـ ولهذا جاء تكرار قصة نبي الله موسى عليه السلام تارة ببيان فضل الله تعالى

= الغضب في وجهه، ثم قال: «**يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**» أخرجه البخاري ٤/ ١٩١ (٣٤٠٥)، كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم ٢/ ٧٣٩ (١٠٦٢)، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه.

(١) الحديث عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة**، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: **ما أنا عليه وأصحابي**» أخرجه الترمذي ٥/ ٢٦ (٢٦٤١)، كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق الأمة، وقال: «هذا حديث مفسر غريب لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه»، وقال الألباني في تخريج مشكاة المصابيح ١/ ٦١ (١٧١) بعد أن عزاه للترمذي: «قلت: علته عبد الرحمٰن بن زياد الإفريقي وهو ضعيف» وحسنه في صحيح سنن الترمذي ٢/ ٣٣٤ (٢١٣١)، وأورده في صحيح الجامع وزيادته ٢/ ٩٤٣ (٥٣٤٣)، وعزاه للترمذي عن عبد الله بن عمرو وقال: حسن، فالظاهر أنه ضعف سند الترمذي فقط، وحسَّن الحديث لما له من الشواهد. ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣/ ٣٣٤ (١٣٤٨)، والله أعلم.

(٢) جلاء الأفهام ١٩٩.

(٣) البرهان ٣/ ٢٥.

عليه وعلى بني إسرائيل، كما في آيات كثيرة من سورة البقرة.

ـ وفي سورة طه وسورة القصص تفصيل ولادة موسى عليه السلام، ونشأته في بيت فرعون.

ـ وتارة بالحديث عن مناظرة موسى عليه السلام لفرعون، وقصته مع السحرة، وإيمانهم، وقيام الحجة على فرعون كما في سورة الأعراف وسورة يونس وسورة طه وسورة الشعراء.

ـ وفي سورة غافر الإشارة إلى قصة الرجل المؤمن الصالح الذي وقف مع موسى ودعا فرعون إلى الإيمان ونصح قومه وأنذرهم.

ـ وتارة يأتي الحديث بتفاصيل أخرى من قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، وتعامله مع عنادهم وعنتهم، كما في سورة البقرة وسورة المائدة، وسورة الأعراف وسورة طه وسورة النمل.

ـ وفي سورة الكهف قصته مع الخضر.

ـ وتارة ببيان ما حل بهم من العقوبات الإلٰهية والنقمة الربانية جزاء كفرهم وبغيهم، كما في سورة الأعراف، وسورة هود، وسورة طه، وسورة الشعراء.

قال ابن تيمية: «وقد ذكر الله هذه القصة ـ قصة موسى ـ في عدة مواضع من القرآن، يبين في كل موضع منها من الاعتبار والاستدلال نوعاً غير النوع الآخر» إلى أن قال: «يعبر عن القصة بجمل تدل على معان فيها، ثم يعبر عنها بجمل أخرى تدل على معان أخر، وإن كانت القصة المذكورة ذاتها واحدةً فصفاتُها متعددة، ففي كل جملة من الجمل معنى ليس في الجمل الأُخر»[1].

ومن الأمثلة:

تكرر قصة آدم عليه السلام في عدد من سور القرآن:

كما في سورة البقرة، والأعراف، والحجر، والإسراء، والكهف، وطه، وص.

---

(١) مجموع الفتاوى ١٧/ ١٦٧.